

دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

القرآن والتفسير المعاصر

(هذا بلاغ للناس)

اقرأ

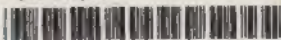
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



على مدى أربعة عشر قرناً، ثم يكن للأمة
الإسلامية ملاذ يحمي بقاءها وتحقق به
وجودها غير هذا القرآن.

وفي صراع القوى المعنوية بين الرسال
وخصومه، لم يعرف تاريخ الإسلام هدفاً
لعدوه سوى هذا الكتاب بسلطانه الافر
على ضمير الأمة.

وإذا لا سبيل إلى تحريف نصه الثابت
وتبديل كلماته المؤثرة كان هم أعداء الأمة
أن يحتالوا عليها بتأويلات خالصة خاطئة،
تتصرف بالفهم الرسال عن كتابه
المحكم، فلا سبيل يؤمن وجودنا سوى أن
يكون فهمنا لكتاب الله محسراً من كل
الشوائب المقلحة، والبذع المدموسة، بأن
نلتزم في تفسيره ضوابط منهجية تضمن
حرمة كلماته، فرفض بها الريف الباطل،
ولغة التلمويه، ومكرة التخدير.



MCHAMED KHATIB



أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٣٥]

رئيس التحرير: **رجب البنا**



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب



دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)



القرآن والتفسير العصرى

(هذا بلاغٌ للناس)

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والظموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحيها .

طه حسين



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

على مدى أربعة عشر قرناً - لم يكن للأمة الإسلامية ملاذ
يحمي بقاها وتحقق به وجودها ، غير هذا القرآن .

وفي صراع القوى المعنوية بين الإسلام وخصومه ،
وصراع القوى المادية بين شعوب أمته وأعدائه ، لم يعرف تاريخ
الإسلام هدفاً لهواه - من أي جنس وبلة ، وفي أي عصر
أو قطر - سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة ،
ولوائه الموحد لشماتها على تنائي الديار وتباعد العصور وتفاوت
الأجيال واختلاف الأجناس والألوان .

وإذا لا سبيل إلى تحريف نصّه الثابت وتبديل كلماته
الموثقة ، كان هم أعداء الأمة أن يمثالوا عليها بدويلات خلابه
تنحرف بالقهم الإسلامي عن كتابه المحكم .

فهل من سبيل يؤمن وجودنا ، سوى أن يكون فهمنا لكتاب
الإسلام محرراً من كل الشوائب المصحمة والبدع المنسوسة ، بأن نلتزم
في تفسيره ضوابط منهجية تصون حرمة كلماته ، نفرض بها
الزيف والباطل ، ونفتي أحلة السحر ، وقتنه القويه ، وسكرة
التخدير ؟

ذلك هو ما أحاول هنا أن أحدث فيه إلى ضمير أمتي ،
من هدى القرآن الكريم ، بمنطق العصر وستة الحياة وعبرة

التاريخ ؛ لتعلم أن ما تسمعه دنيا من دعوى الحاجة إلى
تفسير عصرى غير الذى بينه نبي الإسلام وعرقته موصية النبوة
ليس إلا نعمة جديدة خلافة ، لا تحظى فيها ذاكرة التاريخ ،
رجع الصدى لا سمعه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من
المرتابين فيما أبلغ من آيات رسالته وما بين من هداها :

وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ
مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا
مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ۝ صدق الله العظيم



فجأة من حيث لا نتوقع ، يتردد في أفقتنا كلام عن حاجة الناس إلى تفسير عصري للقرآن يستجيب للتقدم العلمي ، ويتابع ما يتحدث الإنسان من علوم العصر ، وما يكشف من أسرار الذرة والإلكترون وبيولوجيا القمر . . .

ويسأل سائل : [كيف يمكن أن يتجمد فهمنا للقرآن عند الذي فهمه أسلافنا منذ أربعة عشر قرناً وقد عاشوا بعقلية عصر لم يكن يعرف معنى كلمة بيولوجيا وحيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأثر وبيولوجيا ؟]

وهذا كلام يبدو في ظاهره منطقياً ومعقولاً ، يلقي إليه الناس أسأعهم ، ويبلغ منهم غاية الإقناع ، دون أن يلتفتوا إلى مزالقه الخطيرة التي تسمح العقيدة والعقل معاً ، وتختلط فيها المفاهيم وتشابه السبل فتفضي إلى ضلال بعيد .

إلا أن نعصم بلعائنا وعقولنا ، لنميز هذا الخلط الماسخ لحرمة الدين ، المهين لمعتقد العصر وكرامة العلم .

وأول ما يشغلني من هذه القضية ، هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصري على غير ما بينه في الإسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التي تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبي أمي ، بعث في قوم أميين ، في عصر كان يركب الناقة والحمل

لا المرسيدس والرولر رويس والبولينج وأبوللو ولونا ، ويستضئ ،
بالحطب لا بالكهرباء والنيون ، ويستقى من نبع زمزم ومياه الآبار
والأمطار . لا من مصفاة الرشيع ومياه فيشي ومرطبات
الكوولا . .

وتتروط من هنا إلى الزلق الخطر ، يستل كل
عقول أبناء هذا الزمان وضمايرهم ، فيرسخ فيها أن القرآن إذا
لم يقدم هم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك والفنوما كروبا
وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرة . . فليس صالحاً لزماننا
ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله متطقنا المعصرى !
هكذا باسم المعصرية ، نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن
كما فهمه الصحابة في عصر المبعث ومدونة النبوة ، ليمهوه
في تفسير معصرى من بدع هذا الزمان .

وباسم العلم . نحابلهم بتأويلات محدثة ، تلوك كلمات
ساذجة عن الذرة والإلكترون وتكنولوجيا السدود ، وبيولوجيا
الميكروبات وديناميكا المصلب وبيولوجيا القمر ...

وفي صحيح هذه الكلمات الطنانة الرنانة ، وخلاصة ما يقدمه
التفسير المعصرى من عجائب وغرائب ، تهر البصير فتعذر الرؤية الثاقبة
التي تميز حقاً من باطل ، وعلماء من فجّل ، وإيماناً من زخرف قول
ومهرج بسعة : ويفترها أن تفصل بين منطق تفكير علمي

وجزأة ادعاء وطبول إعلان

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُهِينٌ * وَإِنَّا نُنَقِّلُ عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُنْتَكِبًا كَذَّابٌ لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *

ولعلم فريضة والشهادة أمانة، وكلمة الحق مسئولية وتكليف.
وفي مواجهة التيار الجائع ، أودى فريضة العلم وأمانة
الشهادة ، لكيلا أبوء بلعنة إثم القلب .

• • •

في وعي وسمعي ، أصلاء مماثلة من دعوة سابقة ،
بشرها في أعقاب الثورة العرابية دعاء أجاتب ، لم يحرموا على
التصدي للقرآن مباشرة ، فأنجموا إلى لغة القرآن .
وخرجوا على الناس في أفتنة العصرية والعلمية والتقدمية ،
ينادون بأن [هذه اللغة البدوية هي المسئولة عن تخلفنا العلمي
والحضاري ، لأنها التي قتلت فينا موهبة الاختراع ، وقضت
علينا بالجمود والمقم ، إذ تفكر بلغة أسلاف لنا عاشوا في عصر
السلالة] .

وتصدى ضمير الأمة لمواجهة تلك الدعوة الأجنبية بالحدائق والرفض ، فكادت تنهب مع الريح ، لولا أن حمل لومها دعاة من متقينا المصريين ، أنكروا هذه اللغة التي أورثنا عقابها القديمة المتحجرة المتبلدة . واشتدت حملة « الأستاذ سلامة موسى » على [الأحافير اللغوية التي ورثناها من مجتمع ديني زراعي إقطاعي ، فلفتنا الرسمية ليست لغة الديمقراطية والأفومييل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن وثقاليد العرب ، فلا أمل لنا في حياة صحية ، مع لغة خروما نجهل نحو مائة علم وفن ، لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا إلى لغة أخرى] .

ولم نجد الدعوة إلى نبذ [لغة القرآن] صديقا ، فكان أن عمد داعية العصرية إلى محاولة جديدة لتطوير معجم لغتنا وأساليبها البلغوية ، وقدم نماذج من (اللغة والبلاغة العصرية) المقترحة لا تعد كثيراً عن المحاولة العصرية لتفسير القرآن . فتصور ، أو صور لنا ، أننا ندخل سباق العصر العلمي ، بمجرد أن نستعمل مثلاً : [التناقل الرومانيزي ، والطاقة الموطرية للكلمات ، ويذهب التطور من أعظم الحماثر الاجتماعية ، والحرب قاطرة التاريخ ، ونحرثت الفكرة صتلى] .

وكما اشتلت حملته على حماة الفصحى [لغة القرآن الموروثة من مجتمع ديني زراعي] ، ورأى فيهم أعداء التطور وكهان العصر [وهم الذين تخصصوا في درس اللغة العربية ،

فإن تخصصهم ضيق كفاقتهم ، فصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحصرة في العابد . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لم وضع اقتصادي ووجدان طبقى ، ينهضان على استبقاء العربية على جموعها الحاضر ، ولذا يكبحون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية ، ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تملو على مصالح أية طبقة فيها ^(١) .

أقول : كما اشتدت حملته على حماية الفصحى والتخصيص في العربية ، تشدد الحملة اليوم على احتكار أصحاب التخصص في الدراسات القرآنية ، وتشر مجلة صباح الخير ، نداء لزميل من محرريها ، يدافع بنفس المطلق ، وأكاد أقول بنص الكلمات ، عن التفسير المعاصر ، ويرجوني [أن أفكر في هذه القضية بعقيدة المتفكر الحرص على مصلحة الأمة ، لابعامة المتخرف الذي يحرص على مستقبله الخاص ، وينافح عن اختصاصاته الرسمية التي يأكل منها خبزه] .

• • •

والسؤال الخطير الذي تطرحه القضية هو :

هل نفهم القرآن كما بينه نبي الإسلام ، أو كما يفهمه

(١) القضية معروضة بمزيد تفصيل ، في كتابي (لغتنا والحياة) ط ٢ ص ٥٤

مفسر عصري ، قلب نفسه لمنصب الفتيا في العقيدة وجعل من
 المحبة داراً عصرية لإفتاء المسلمين في الحلال والحرام ، وأداع
 أنه بهم من القرآن [أن جبريل يمكن أن يتزل في أي زمان
 ومكان ، على أي نبي من أي عصر وبأية لغة] ؟

فلننظر في هذا التفسير العصري ، من حيث هو نموذج
 ومثال لما يحقّض فيه من يتكلمون في القرآن بغير علم ، وما يتعرض
 له المفسر الإسلامي من بدع التأويل بالرأى والهوى :

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً
 تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَلِيماً » صدق الله العظيم

عائشة عبد الرحمن	١٣٩٠	شعبان
استاذ التفسير بجامعة القرويين ، المغرب	١٩٧٠	أكتوبر

هذا القرآن

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَلِإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

القرآن الكريم هو معجزة نبوة المصطفى المبعوث بختام
الآديان .

وهو كتاب العقيدة الإسلامية .

وسائر أصول شريعته ، من السنة والقياس والإجماع ،
مأخوذة من القرآن الكريم ومستمدة منه ، أصلاً أول .

والمذاهب الفقهية تتعدد ، والأصول واحد . والفرق الإسلامية
تختلف ، بحكمة دائمة إلى فهمها لكتاب الإسلام ، ومستندة
بنصوص آياته .

وعلى تناق للكان ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ،
تفاوت المصطلحات الإسلامية ، وهنا القرآن مناط وحدة هذه
الأمه عقيدة وروحاً وفكراً ومزاجاً .

وعلى تباعد الزمان من غار حراء إلى عصر القمر ، تنفوت
الأجيال في موقعها من الدين وفهمها لختم الآديان .

ويبقى القرآن ثابتاً لا يتغير ، موثقاً لا يسه أدنى تبديل
ولا تتعلق به شبهة من أي تحريف .

• • •

من فجر المبعث ، بدأ توثيق القرآن للكريم : بنالوه
المصطفى على صحابه ، وبقروءه عليه ، ويكتبه كتاب

مهم ، على ما تيسر من مواد الكتابة ، بإشراف المصطفى عليه
انصالة والسلام وتوجيهه .

كان هناك تبه مرهف ، إلى ما لحق للتوراة من تزييف
يهود ، وما لحق الإنجيل من اختلاف الطوائف المسيحية عليه ،
نص ونهماً وتأويلاً .

وإذ كان القرآن الكتاب الخاتم للرسالات الدينية ،
المصدق لما سبقه من كتبها ، والمستصني لما فيها من جوهر الدين
الواحد الحق ، فرضت الحاجة إليه ضرورة توثيق نصه ،
لتجد فيه البشرية الكلمة الأخيرة للدين ، آمنة من شبهة أى
تحرّيف له أو تبديل .

لم يكف المصطفى بأن يحفظه الصحابة في صلورهم ،
بل ندب لكتابته عدداً من كتّابهم ، وكان هو الذى يحدد
موضع كل آية من سورتها ، بتوجيه الرسمى .

وزيّد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن كله محفوظ
في صلور الصحابة ، مدون على ما تيسر من الرقاع والعصب
والواح الأكتاف ورقاق الحجارة ، وإن لم يجمعه كتاب
واحد

في عهد أبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، كانت عملية
جمع القرآن من مصحفه المنفردة :

في حروب الردة ، استشهد عدد غير قليل من الصحابة

حفظ القرآن، بلغ في «يوم الجمعة» نحو أربع مائة وخمسين مصحفاً^(١) وكان «عمر بن الخطاب» هو الذي سمى مصبه لهذا الجمع : تحدث فيه إلى أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ، فردد رضى الله عنه ، نخرجاً من أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل «عمر» يراجع في الأمر حتى شرح الله صدره لن ذلك .

وتمت عملية الجمع والجهود بالمصطفى قريب ، وبُذِب لها «زيد بن ثابت» أحد كتاب الوحي للرسول ، وحفّظ القرآن الثقات . وأمر كل من لديه شيء من المصحف والرقاع أن يقدمها إلى «زيد» فبلغ من حرصه وتجرّبه ، أن كان لا يكتفى بمراجعة ما يتلقى من مصحف للقرآن على حفظه ، بل تابع في الاحتياط فلم يقبل من أحد آية إلا أن يأتي بشاهدين على أنها كتبت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأودع القرآن مجموعاً في مصحف ، لدى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر»

في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» وحُفِّت قراءة المصحف على حرف واحد . ونُسخت منه نسخ وزُعت على الأمصار الإسلامية ، مع الأمر بأن يُحرق ما عداها من

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن . مع تاريخ الطبرى ،

مصاحف . بإقرار الصحابة ومشورتهم .

فصت بذلك ضرورة طارئة لقتت إلى خطر لم يكن في الحساب :

كان المسلمون من قبائل العرب قد أذن لهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن على عدة وجوه ، تعرف في المصطلح القرآني بالأحرف السبعة ، يختلف فيها مسطوق ألفاظ من القرآن دون معانيها ودلالاتها ، تبعاً لاختلاف لهجات العرب أو لغاتهم ، على وجه التيسير لهم بالقراءة على ما تطوع به ألسنتهم ، كأن يقرأ بعضهم : « كلما أضاء لهم مشوا فيه »^(١) ويقرأها آخرون : سحوا فيه ، أو : مضوا فيه . ولم يكن اختلاف الأحرف السبعة في كلمات من القرآن ، يشير أي قلق أو شبهة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أي يكر وعمر . إذ كان المسلمون العرب يعلمون علم اليقين أن الأمر فيه لا يعطوا اختلاف لهجات القبائل في هذا اللفظ أو ذلك ، للمعنى الواضح .

لكن بؤادر القلق لاحت بعد أن خرج العرب من جزيرتهم يحملون لواء الإسلام ، وكان أن فتحوا مصر والشام

(١) آية البقرة : ٢٠ - وانظر غنظف الأقوال في الأحرف السبعة ،

و (البرهان في علوم القرآن) لأزركشي ١ / ٢١٣ ط الخلفي ٩٥٧ .

و (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي ، ١ / ٥١ ط مصر ١٢٨٧ هـ .

والعراق قبل أن يمضي ربع قرن على الهجرة ، وحالطوا شعوبها التي وجدت في سماحة الإسلام ويسره وإقراره حرية للتدين ، ملاذاً من وطأة القروس والرومان .

عندئذ خيف على الإسلام أن تسمع هذه الشعوب الطائفة على العربية ، قراءة المسلمين العرب للقرآن ، فيظنوا أنهم يختلفون فيه ، باختلاف هذه الأحرف المباح لهم قراءته بها .

ثم اشتد التعلق حين خرج مسلمو الشام والعراق ، مع كتائب الفاتحين ، إلى ما وراء النهر . وقد كان هؤلاء وهؤلاء ، تلقوا القرآن من صحابة تختلف قبائلهم . فحدث أن أهل الشام حطروا أهل العراق ، وكذلك خطأ العراقيون أهل الشام ، على مرأى وسمع من شعوب البلاد التي امتدت إليها راية الإسلام .

روى « البخاري » في (صحيحه) أن الصحابي « حذيفة بن اليمان » خرج مع جند الشام والعراق في فتح أرمينية وأذربيجان ، فأفزعهم اختلافهم على قراءة القرآن ، فلما رجع قدم على الخليفة عثمان فقال له : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا على القرآن اختلاف اليهود والنصارى » .

وتتابعت التفرق بأصداء هذا الاختلاف ووقعه ، فكان أن استقر الرأي على ضرورة حسمه :

أرسل « عثمان » إلى أم المؤمنين « حفصة » يستأذنها في أن تخرج إليه المصحف المجموع المودع لديها ، لينسخ منه نسخاً ثم يعيده إليها .

ونذب أربعة من الصحابة بولاية يزيد بن ثابت، لكن كتابة المصحف بلغت القرشية التي قرأها بها المصطفى في العرسية الأخيرة للقرآن ، فلما فرغوا من كتابة المصحف الإمام ، نسحت منه أربع نسخ - على المشهور - بقيت إحداها في المدينة ، وأُرسِلت الثلاث إلى الكوفة والبصرة والشام .

وسرع هذا الإجراء ، تفاقم الخطر من اختلاف المسلمين على فرائده ، وقد زالت الحاجة التي سوغت التيسير ، يالغ العرب لغة النبي القوي ، لسان الدين والدولة .

ويحتمل أن يكون بعض المسلمين قد تخرجوا من هذا الإجراء ، لكن أولي الرأي والمشورة من الصحابة ، كانوا مع عثمان في ضرورة حسم الخلاف .

في (سنن أبي داود) أن الإمام علي كرم الله وجهه قال :
« لا تقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل للذي فعل ،
في المصاحف ، إلا عن ملأنا . . . ولو وليت ما ولي عثمان
لعمري بالمصاحف ما عمل » .

ونقله الزركشي « ما روي عن الإمام علي » أنه قال :
« رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع المصحف بين
اللوحيين . ولم يجمع الصحابة في أيامه وأيام عمر إلى جمعه على
وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف
فيه ما حدث في زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم ، رفع

الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة (١).

• • •

المصحف الإمام ، لم يعد هناك أى خلاف إلا في طريقة القراءة للمصحف الواحد ، من حيث المسلك الصوري وكيفية الأداء لا بمحتله رسم الكلمة . وهذه أيضاً ، لم تترك بغير صابط ، بل عرفت الأمصار الإسلامية من ذلك الزمن للبكر أئمة من جيل التابعين يرجع إليهم الناس في إلقاء القرآن ، على ما تلقوه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الناس على رأس المائة الثانية للهجرة ، على قراءة « أبي عمرو بن العلاء » بالصرة ، و « حمزة وعاصم » بالكوفة ، و « ابن عامر » بالشام ، و « ابن كثير » بمكة ، و « نافع » بالمدينة : كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء ، وارتحل الناس إليهم من البلدان .

وعلى رأس المائة الثالثة اقتصر « أبو بكر بن مجاهد » - شيخ القراء في بغداد ، ت سنة ٢٢٤ هـ - على القراءات السبع المشهورة : المنقولة عن الأئمة السبعة :

• عبد الله بن كثير المكي ، مولى القرشيين ، التابعي وتوفى بمكة حوالي سنة ١٢٠ هـ .

• نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، توفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ .

(١) القيرمان في علوم القرآن : ١ / ٢٢٩ .

• عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، قاضي دمشق من كبار التابعين ، توفي حوالي سنة ١١٨ هـ .

• أبو عمرو بن العلاء البصري ، توفي سنة ١٥٤ هـ .

• عاصم بن أبي النجود ، أبو بكر الأسدي الكوفي ، توفي بالكوفة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة .

• حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، ت حوالي ١٥٦ هـ .

• أبو علي بن حمزة الكسائي الكوفي ، مولى بني أسد^(١) .

والسبب في اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم ، أنه لما كثّر قراء القرآن ، نظر الناس في كل مصر إلى إمام مشهور بالهمة والأمانة وحسن التدوين وكمال العلم ، قد طال عمره ، منقطعاً إلى الإقراء ، وأجمع أهل مصر على ذلك .

ونقلت القراءات السبع المتفق عليها عبر الزمن بالتواتر ، متصلة الإسناد طبقة عن طبقة ، إلى القراء السبعة الأئمة .

ومهما تختلف هذه القراءات في طرق الأداء فليها تلتقي جميعاً في اتصال إسنادها ، ووافقها لغة العرب ، ولزامها رسم المصحف العثماني الإمام .

(١) راجع تراجم القراء السبعة الأئمة ، في كتب طبقات القراء

وتناهت أجيال من المحققين على خزمة القراءات ،
 وصُنفت كتب في نقط المصاحف ، وفي ضوابط الوقف وسائر
 قواعد التجويد ، على القراءات السبع التي يقرأ بها القرآن اليوم
 في ابلاد الإسلامية ، على النحو الذي قرأه به الأئمة السبعة
 بالإسناد المتصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

على هذا النحو ، وثُقت نص القرآن الكريم بتأويله في عصر المبعث ، وجمعه من صحفه المنقولة في عهد الخليفة الأول ، وتوحيد قراءته على رسم المصحف الإمام ، في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وضبطت قراءاته بالتواتر ، بالطرق المباشرة عن أئمة القراء ، متصلة الإستاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وبهذا التوثيق الذي لا يعرف التاريخ له مثيلاً ، لم يكن هناك أى مجال لتحريف نصه ، بل صلت كل الذرائع التي يحتمل أن يصل إليه منها أى تغيير أو تبديل ، نصاً ورسماً وقراءة وتجييلاً .

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى التفسير ، من حيث كان مجالاً لاختلاف الفهم باختلاف الظروف والأحوال .

فعلى المدى الطويل ، خضع فهم المسلمين للقرآن لتأثيرات شتى : منها ما قضت به طبيعة الحياة مع اتساع العالم الإسلامى وسير الزمن بشعوبه ومجتمعاته .

ومؤثرات أخرى فرضتها عوامل سياسية وملهية لم تجد سبيلاً إلى السيطرة على المسلمين ، غير توجيه فهمهم لكتاب

دينهم ، وإخضاعه للأهواء والعصبيات : فكان أن تسلمت إلى التفسير القرآني عناصر دخيلة وشوائب مقحمة ، أحدث قوتها حيناً من إلحاح التسلط على الوجدان الديني للجماهير ، وحيثاً من فتنة الاستهواء وتغلبة البدع وسحر التمولي . وتترك للرمز ، يعطيها من سلطان الإلف وحماسة الوجدان للعام ، حرمة تتحدى كل محاولة لتحرير الفهم القرآني من تلك الشوائب التخيلية والبدع المقحمة والمندوسات الخبيثة .

وما كان بالأمس بدعة منكورة ، يمكن أن يصير مع الزمن أمثله بالعقيدة .

وما يريتنا اليوم من شطط التأويل ومحدثات البدع ، يمكن أن يتسلط على الوجدان الشعبي بالسحر والتخيل ، فلا يلبث أن يرسخ ويتأصل ، ويغدو التصدي لتصحيحه مجازفة خطيرة .

• • •

وجنود المأساة غائرة بعيدة ، لا يخطئ التاريخ أن يلمح سرتها الخبيثة فيما أقحم اليهود على التفسير القرآني من عناصر إسرائيلية :

مع التحول التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة ، واجه الإسلام عصابات يهود الناشبة في مستعمراتها شمال الحجاز ،

ومن عام الهجرة بدأ الجدل في القرآن ، يتولاه أحبار

يهود الذين تمت تعبتهم لإغاثات نبي الإسلام والدخول معه في جدل عقيم دون أن يواجهوه بحرب معلنة ، وقد أمسهم على دينهم وعباداتهم وأموالهم وأنفسهم .

ثم كان أن تعود فقر منهم بالإسلام ، ودخلوا فيه ليكيلوا له^(١) . وأخذ الذين أسلموا منهم ، مكانهم في المجتمع الإسلامي ، لا يستطيع أحد أن ينفيهم عنه وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

والذين أدركوا منهم نبي الإسلام وبإيعونه ، عُدُّوا من أصحابه الذين ترجع إليهم الأمة في أمور دينها ، فهم تراجمة القرآن للأشغال التي لم تلوك عصر المعث ، وهم رؤاة السنة . المصدر الثالث للشريعة الإسلامية .

* * *

ومن الجيل الأول للذين أسلموا من يهود ، بدأت تدلج النهم الإسلامي عناصر من تأويلاتهم وشروحهم . عرف في المصطلح باسم « الإسرائيليات » .

وكانت الفترة التي تسلت منها هذه العناصر ، أن القرآن يُحمل غالباً ، قصص القرون الخالية ، تركيزاً على موضع العبرة منها وجوهر الحادث .

وهذه كلفك آيات عن غيبات ، ما كان بمسلمون

الأولون ليخوضوا فيها ، ولا علم لهم بشيء منها إلا ما جاء في القرآن عنها .

وهؤلاء اليهود أهل كتاب . . .

وقد نضخم قرائهم من المقولات اللبينة .

وإذ كان الإسلام يحب ما قبله ، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من يهود ، وألقوا إليهم أسماعهم وهم يتشبهون في سرد حكايات جدابة وتفصيلات مثيرة ، تحسبها لما اكتفى القرآن بالإشارة إليه . وغلب الوهم ، بأنها من المرويات الدينية لأهل الكتاب ، دون تنبيه إلى ما دس عليها من أسطوريات شُحبت بها العقيدة الإسرائيلية في تمها القديم وتشردها الطويل .

ولم يحل دون رواج الإسرائيليات : أن القرآن شهد على يهود بتقوهم على الله وتحريفهم كلماته تعالى عن مواضعها :
ومن أوائل العهد الملقى ، حيث خالط اليهود المهاجرين ولأنصار ، تايحت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر هؤلاء المزيمين الأشرار :

اَفْتَضَحُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا سَمِعُوهُ وَهُمْ يَغْلِبُونَ ، البقرة : ٧٥

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ
 إِلَّا يَظُنُّونَ • قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ
 يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلُ
 لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوُضِعَ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ ^{٧٨} ٧٩
 وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ
 لِتَحْسَبُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ • وَيَقُولُونَ هُوَ
 مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ^(١) ٧٨ : آل عمران

كما لم يتحل خوف رواج هذه الإسرائيليات - ما روى عن
 المصطفى صلى الله عليه وسلم من حديث في أقوال أهل الكتاب
 وموقف المسلمين منها: يسمعونها ولا يعملون بها . كما حذر عليه
 الصلاة والسلام أمته من قوم « يقرءون القرآن بشرونة نحر الدقل ،
 يتأولونه على غير وجهه » .

وعند العامة أن الإسلام فرض عليهم الإيمان بالأديان
 السماوية قبله ، وأكد القرآن أنه مصلوق لما بين يديه من
 التوراة والإنجيل . وحديث الرسول ، ليس فيه شيء عن سماع

أقول أهل الكتاب وإنما اتى عن العمل بها .

وهبات أن يميز عامة المسلمين . فيما يسمعون من
إسرائيليت ، بين ما هو من أصل التوراة وما هو من تحريف
يهود وأسطوريانهم وعقلة ميراثهم من التيه والتشرد والمخند والشر
ودخلت هذه الإسرائيليات في كتب التفسير ، مروية عن
صحابة ينحرج للمسلم من أهمهم .

وكان لها من موضعها مع الآيات القرآنية ، في كتب
التفسير ، حرمة ومهاية . وبعضى الزمن . نشبت في فهم
المسلمين للقرآن ، فاستطاعوا أن يتحرروا منها حتى اليوم .

* * *

هنا وثقة لابد منها عند هذه الإسرائيليات :

فلقد يبدو لكثير منا أنه يكفى عرضها على ما نجد من نسخ
التوراة ، ليميز ما تأخذ منها وما نضع .

يَـصَوْنُ : أن نقبل تفسير القرآن بالإسرائيليات التي نحدث
في التوراة ، ونشخص مما علها من مسمومات .

وحجتهم في هذا ، أن القرآن مصلوق للتوراة والإنجيل ،
مصرح آياته للحكمات .

وأقول : إنه مع القرض جدلا بأن التوراة وصلت إلينا دون
تحريف ، فقد بى أن الإسلام في تصديقه للأديان قبله ،

استصنى منها ما رأى البشرية المتنبئة أن تصير إليه ، فإيا هو من جوهر العقيدة ومناط الاعتبار .

والذى استبقاه منها موجود في القرآن .

والذى نسخه مما جاء فيها ، لا يحل أن تدخله على تفسير القرآن ، وإنما يُعنى به من يشتغلون بتاريخ الأديان والدرس المقارن بينها .

ولس شاء أن يقرأ أقوال أهل الكتاب في شروحهم للتوراة ، ولكن ليس لأحد أن يفسر بها القرآن ، لأنه بهذا يفهم عليه ما لم يتعلق بذكره .

فإذا شق علينا أن نفهم أن الدين في ختام رسالاته قد غاظت البشرية بأسلوب غير الذى كان يلائمها في عصور خلت ، فإن لنا أن نقرر أن المسج العلمى ينكر أن تفسر انص بما لا يحتمله لفظه وسياقه .

ومهما يختلف إدراكنا للحكمة العليا في العلول عن شيء ورد في كتاب نزل قبل القرآن بقرون ذات عدد ، فما يبغي أن يفرض على كتاب الإسلام ما لم يأت فيه ، وكأننا بذلك نفرط في أمانة نصه الموثق ، ونهمل الجهود التاريخية التى بذلت لصياغته بالتوثيق من أى تحريف أو تغيير .

وذلك ما غاب عن أجيال منا ، ظلت تتلقى الإسرائيليات المقحمة على النصير ، وتفهم بها كتاب الإسلام .

هذه فكرة موجزة عن الإسرائيليات التي دسها يهود على
الفهم الإسلامي للقرآن ، من عصر مبكر .

بعدها جاءت العصبيات السياسية والمذهبية ، فتدخلت
في فهم المسلمين للقرآن بما يساير أهواءها .

كما جاءت الفرق الكلامية فأضافت إلى كتب التفسير
تأويلها لما تحتاج به من آيات القرآن ، في الحصومة الجدلية
العنيفة التي احتلعت بين المتكلمين . . .

إلى جانب ما داخل الفهم الإسلامي للقرآن ، من تأويلات
لمفسرين من الأعاجم المسلمين ، صيغ لهم علم العربية ،
لغة القرآن ، وفاتهم دقيقها النقي وبيانها الأصل .

والمحصلون بالدراسات القرآنية ، يعرفون ما حشيت به كتب
التفسير من إسرائيلييات حلول بها اليهود ، ممن دخلوا في الإسلام
طوعاً أو كرهاً ، تعلم الفهم الإسلامي للقرآن بمتاصر إسرائيلية .
ويعرفون كذلك ما أقحم عليه من تأويلات جاءت بها «الطروف
الدينية والسياسية والتاريخية» التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ،
وتفاوت بها المفسرون تبعاً لتباين أذواقهم واختلاف عقلياتهم
وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ، في ذلك العلم الإسلامي
الواسع الذي امتد من أقصى المشرق ، إلى أقصى المغرب ،
وتفاسحته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وإقليمية ،
فاقتضى هذا بطبيعة الحال ، أن توارث على القرآن مفسرون

من أنماط شتى وعصبيات مختلفة...
 وألف في التفسير - كما قال الجلال السيوطي : « حلائق
 احتصروا الأسانيد التي ترفع المرويات فيه إلى الأئمة - ونقلوا
 الأقوال قترى . فدخل من هنا للدخيل والتبس الصحيح
 بالعليل . ثم صار كل من يصحح له قول يورده . ومن يحظر
 سله شيء . يعتمد . ثم ينقل ذلك عنه من يحىء بعده ، طائفاً
 أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف
 الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير » (١) .

* * *

هل يعلم من هنا ، أن تفسير القرآن كان مباحاً لكل
 هؤلاء ، من غير قيد أو شرط ؟
 كلا ، بل كانت هناك شروط ملتزمة ، لا يهاون العلماء
 في ضرورتها للمفسر ، ولا يحرق أحد على التصدى للتفسير
 دون استيفائها .

الدراية بعلوم العربية ، كانت الشرط الأول !
 وهو شرط لم تكن هناك حاجة إلى تحريره في العصر الأول ،
 والقرآن في بيئة العربية الفصحى .
 ثم مع الفتوح الكبرى ، خرج المسلمون من بلاد العرب ،
 واستقروا في الأقطار التي فتحها الإسلام ، ونالوا شعوبها .

وعدت القصص عن يثرب الأولى وتعرضت لما قصت به طبيعة الظروف وسنن الاجتماع القوي ، من شوائب العجمة واحتلاط الألسن وظهرت آثار من ذلك كله على جيل المولدين من العرب الذين ولدوا في الأقطار المفتوحة .

وتعربت الشعوب الماخلة في الإسلام ، فانتسج النحال العربي للعربية ، في القرن الأول للهجرة ، من المشرق الآسيوي في خراسان وما وراء النهر ، إلى المغرب الإفريقي حتى ساحل المحيط الأطلسي .

ومن حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول القوي لهذه الشعوب ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على الغزو القوي للفرس واليونان والرومان ، وقف حملة القرامد يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

وانجذبت الجهود لحماية لغة الإسلام ديناً ودولة ، إلى جمع تراث القصص الأصيل وتلويته ، وعكف عليه العلماء ، من القرن الثاني للهجرة ، يستخلصون منه القصص مصممين ألفاظها ، ويستبطون بالاستقراء والقياس ، قواعد نحوها وتصرفها واشتقاقها ، وخصائص أساليبها في التعبير والبيان^(١) .

(١) تفصيل هذا ، في كتاب (لغتنا والحياة) : العربية و أنظروا

وكانت علوم العربية صعبة حتى على أهلها .

وعلى مر القرون ، تضخم رصيدها من القواعد والمناهج والمتون والشروح ، وصار للفقهاء أمراً عسيراً لا يدرك إلا بالدراسة المتخصصة الطويلة ، والجهد المقتضى .

وكانت اللاميات إلى جانبها ، تقوم بحاجات الحياة اليومية ، فتشفي عامة المتقنين عن طلب علوم التفصيح ، وهي العلوم التي وضعت أساساً لخطة القرآن ، وفهمها من هنا ، كانت الداية بهذه العلوم لغة وبياناً ، من أول ما اشترطه علماءنا في المفسر .

ما من كتاب في علوم القرآن . لم ينص على أن يكون المفسر عالماً بالعربية .

ويروون في ذلك ، كلمة الإمام مالك :

« لا أوتى برجل غير عظم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا »^(١) .

من إنهم أدخلوا علوم العربية أصالة ، في علوم القرآن ، على نحو ما تجلده في كتابتي « البرهان في علوم القرآن » والإتقان في علوم القرآن .

وكل الذين عرضوا لقضية الإعجاز ، أجمعوا على أن فقه العربية

(١) البرهان للزركشي : ١١ ٢١٢ ، والإتقان للسيوطي : ١٧٩/١ .

لغة وبياناً ، هو أداة النظر في الإعجاز .

ويمكن القول بأن جمهرة الكتب المؤلفة في : مفردات القرآن ، وأقسامه ، وإعرابه ، ونحوه ، وبديعه ، ودلائل إعجازه ... تأخذ مكانها في المكتبة اللغوية والبلاغية .

وتأتى مع علوم العربية ، سائر علوم القرآن مما لا يتصور أن يتصدى مفسر لتأويله ، وهو يحفل مثلاً بأسباب نزوله ، والحكم والتمشاه ، وقراءاته ، ورسم المصحف . . .

ثم هو في حاجة كذلك إلى دراية بعلوم الحديث من حيث كانت السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل منه ، مع دراية كذلك بعلم التوحيد وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة .

ولا يستغنى المفسر بعد هذا كله عن معرفة بالفرق الإسلامية واتصال بكتب الكلام ، وعلم بتاريخ الإسلام .

* * *

والمفسرون من السلف ، كانوا من علماء العربية والإسلام ، تجد أسماهم في طبقات المفسرين ، وتجد كثرهم في طبقات اللغويين والنحاة ، أو الحنفين والفقهاء ، أو المؤرخين والمتكلمين .

وما تصدى لتفسير من أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، إلا أرسخهم قلعاً في علوم العربية والإسلام ، وأبرعهم في

تخريج الأقوال ومناقرة خصوم المذهب ، حتى ليشق على غير الخاصة أن يهتموا إلى سارب التأويل المشط في تفسيرهم .
 فيقول شيخ الإسلام والإمام البلقيني : ، إنه استخرج الاعتزال من (تفسير الكشاف للزمخشري) ، بالمناقش !

ويسوا مع ذلك سواء : منهم من اعتسف التأويل عن حسن قصد ، ومنهم من تورط في التعصب للمذهب ، قصد إلى الكيد للإسلام .

• • •

كيف احتمل الإسلام كل هاتيك الشوائب التي شابت فهم أمته لكتاب دينها ، دون أن يخوفها نوره ؟

الواقع أن الرجلان اللذين للأمة . ظل يقاوم هذه المنسوسات والمفحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة

تهديها فطرتها المتصلة بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً .
 تلوه أو يتلى عليها مصبحة مكية ، في الحضر والبادية ،
 تتحد فيه عاصماً من الزيف والضلال .

ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ،
 لم يحل أي عصر من صوته يحفر الأمة من منسوسات
 الإسرائيليات ومفحمات البدع والأهواء ؛ ولا أحوز الأمة في
 ليل محنتها ، شعاع من النور يهدي مسراها في الظلمات .
 وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للإسلام بعزل أمته عن

بور هداه ، شهد الأئمة الأبرار ساهرين على حراسة لواء الأئمة ،
وتتابعوا على حمل اللواء جيلا بعد جيل ، عن يقين بأن
هذا القرآن هو مناط وجود الأمة ودليل سيرها وسراها .

• • •

وقد تلقى عصرنا هذا التراث ، بكل ما فيه من شوائب
مفحمة وبذور خبيثة ، وكل ما فيه من رصيد قادة الفكر
الإسلامي وحمله لواء القرآن .

وكان عليه أن يميز الخبيث من الطيب ، وأن يحرر الفهم
الإسلامي مما دخلته من ملصقات ، ويحرره كذلك من
سموم طائفة من متعصبى المشرقين أضلهم الحق فحاربوا
المبعج العنصرى الذى ادعوا فيها أنهم حتمسكه ، وجعلوا من خدمة
راث الإسلام ذريعة لاستهوائها ، فسلطوا على فئة متأففة العمية
فكادوا هم الاثنين نقلوا سمومهم إلى مناخنا الفكرى^(١) .

(١) اقرأ فى هذا الموضوع : (إنتاج المشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى
الحديث) للمعكر الجزائرى « مالك بن نوب » مكتبة علم بالقطرة
رسد كتابي (تراثنا بين ملصق وطهر) ط دار المطبعة ١٩٦٩ .

مع الغزو الاستعماري في مطلع العصر الحديث غشينا
من صلعة الخنوق المادي للحضارة الغربية ما يشبه الدوار .

وفي أحنة الصدمة ، أرفقتا عقلة الشعور بالتقصير التي
سهر الاستعمار على ترسيخها فينا ، فتصور بعضنا ألا شفاء منها
إلا بالانسلاخ من جذور أصالتنا والالتقاء إلى الغرب المتفوق الضامر .

وفي الطرف المقابل ، كان فريق منا يتشيث بكل مخدرات
الماضي ، في رجعية فاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر
ووجود هؤلاء وهؤلاء ، ما يهدف لإحسانهم بالعقلة ، في مخدرات
العزو الفكري :

المستعربون وجعلوا ملازمهم فيها تسلط عليهم من إلحاح
فكري وثقافي ، أقنعهم بأن شرقتنا هي سر تخلفنا ، وأن ميراثنا
الروحي هو المسئول عن جمودنا ومحتنا . والآخرون وجعلوا محذر
عقدتهم في اجترار أجداد ماضينا التي تغنى بها بعض المستشرقين ،
فاطمأنوا إلى أنه ليس في الإمكان أبداً ما كان ؟

وحين كانت القضية الكبرى المطروحة على الأمة في
صلحتها بالتفوق المادي لحضارة الغرب الحديث ، هي أن تأخذ
بأسباب العلم لتستأنف خطاها من حيث وصلت إليه في انصر
القيادي للحضارة الإسلامية ، ظهرت محاولة ساذجة لتفسير

القرآن تفسيراً علمانياً. نطمئن به إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتناول به الغرب علينا من علوم حديثة !

وقدم « الشيخ طنطاوي جوهري » تفسيره (الجلوه) فوجدت فيه الجواهر ما يريحها من مهارة الإحصاس الباهظ بالتخلف^(١). ثم لم تكذب غيب من أثر هذا القمر يجهود رواد البقطة لإصلاح الحياة باللين ، وشطط طاقها لتحمل تكاليف وجودها آخر ، حتى بلغت إثر معارك التحرير من مهارة الاستعمار ، صدمة الاجتياح الصهيوني لأقدس حرماننا ، فكشفت عن ثغرات الخلل والتصدع في منطق تفكيرنا ونهج حياتنا .

وصارت القضية المطروحة ، هي قضية وجود وصير . .
والذئاب الصهيونية تسرح في حماها بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر ، والوجه القبيح يسفر عن قناعه ، ويبدأ في قبحه وحقباته ، منكناً على تفوقه التكنولوجي وأجهزته الجهنمية .

خطوات المربوط على سطح القمر توقف التيام .
وه سيوزع حلقة في مدارها المريب وراء الفضاء الكوني ، تتحدى الهم والخيال . .

وإد تحاول الأمة أن تستوعب أبعاد الموقف ، وصولاً إلى طريق النجاة ، ظهر أن الموقع الفكري ، من أخطر مواقع الميدان .

(١) لازيد ياف ، اقرأ : (إخراج المستشرقين) لملك بن نهـ

وكان على قادة الفكر الإسلامى أن يأخذوا بأسانهم في هذا الموقع الخطر ، ليضيئوا مسراها بنور الكتاب الذى حققت به وجودها وحمت بقاها ، ويقدموا لها من قبضته الخالده ما تواجه به تحديات العصر العلمى . دون أن يمزقها صراع معتدل بين العقيدة والعلم ، ودون أن يشغلها جدل عقيم في قيمة الكتاب الذى حمل الإيمان بالعلم عقيدة وديناً ، وكان لواء الحصار الإسلامى في دورها القيادى بالعصر الوسيط

وكان الفن الأجل للخطر في هدير العصر وحوامة المعركة ، وإذا بمفسرين عصريين لادواة لم بطوم الحرية والقرآن ، يتسللون بالخطر إلى الميدان ، فيتسلطون على الجماهير بتفسير عصرية تجلب أسماهم بكلام خلاص عن سبق القرآن إلى نظريات الرياضيات والفلك وعلوم البيولوجيا والجيولوجيا وارتداد الفضاء وغزو القمر ، فما علينا مثلاً أن نرتاد روسيا مجاهل الفضاء ، وأن نهبط « أبولو » على سطح القمر ، وأن نتطلى « ميوز » في رحلتها الجريئة ولقضاءها الظافر ، ولدينا من كل ذلك ما يفتننا عن التعلق به والمعنى إليه ، وعندما مصر عصرى يقدم لنا كل علوم الدنيا ، ويضيف إليها علم الغيب والحياة الآخرة !

• • •

إن تحديات عصرنا ، قومية وحضارية ، هي التى نضعها

أمام ما يروج فينا من تأويلات عصرية للقرآن، لنحدد موقف الدين وانعم من هذه التأويلات التي تقتحم الغيب وتفتي الناس في العلم والدين بخير علم ، وتطويعهم بأبناء الجن والشياطين والملائكة ، وتشلهم من صميم معركة الوجود والمصير إلى هذه المعركة البغائية بجلال المثار حول فهم القرآن وتفسيره .

وبقدر ما تفسر هذه التحديات ، تشتد حاجتنا إلى تأملي هذا الموقع الفكري الخطر ، من حيث لا نستطيع أن نسير مع حركة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور ، إذا ظل تأويل كتاب الأكبر مباحاً لكل ذي هوى أو رأى ، يلوى بصوره ليلاً ، لكي تلي حاجة في نفسه .

وس حيث لا يتصور ، ووجهُ الإلحاد في مدّها الحامح ، والصراع المنهجي في ذروة احتماله ، أن يترك تفسير كتاب الإسلام بخير ضوابط مقررة ملتزمة ، يعرف بها إنسان العصر كلمة الدين في ختام رسالاته ، ويطمئن قلبه وعقله وصميره إلى حقيقة هذا الدين وقيمة عطائه ، فينجو من الخيرة التي تهكّه وتفضيه ، إذ يرى تأويل القرآن في مهيب أعاصير الأهواء وحصم الفتنة : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . صلق الله العظيم

القرآن الكريم بين الفهم والتفسير

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »
صدق الله العظيم

« لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَلَمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ،
يُفَسِّرُ كِتَابَ اللَّهِ ، إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا »
الإمام مالك

المقالات التالية ، نُشرت خلاصة منها بأهرام الجمعة في شهرى مارس وأبريل من عامنا هذا : ١٩٧٠ ؛ ردًّا لما نُشر في مجلة صباح الخير من مقالات بعنوان محاولة « تفسير عصرى للقرآن » .

وقد تصور الدكتور المفسر - أنه يعنى نفسه من مؤاخذته على التصدى للتفسير بغير علم ، بمجرد تغيير العنوان ، فجمع مقالات تفسيره في كتاب مطبوع بعنوان « القرآن ؛ محاولة لفهم عصرى للقرآن » .

وعاب عنه أن العبارة بالموضوع الذى تناوله تناولَ مفسر عالم ، يؤول النصوص ويقتى فى الدين ، وليس تناول صحافى من كتابه القصص ، يعرض تصوراتهِ الدينية ، ويتخيل ما وراء القيب ! .

يدنو أننا في حاجة إلى أن نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام .

بين حق كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه ، وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه لغير ذوي الدراية به . . .

بعد أن شغلت الأمة بهذا الخلاف الطارئ ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من شاء .

والقرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، يسمعه كل مسلم فيمثل معانيه ورمائه ، على قدر استطاعته ، وفي حدود فهمه

بل هو وراء ذلك كتاب للناس جميعاً ، المتدينين والمحلين ، من حيث يحملون فيه الكلمة الأخيرة للرسالات الدينية . ومن حيث لا يعرف التاريخ كتاباً مثله ، غير من حياة البشرية ووجه تاريخها . فمن حق كل إنسان أن يلمس منه ما يلبي حاجته إلى المعرفة ، ويقدم له عطاء الدين في ختام رسالاته .

وإذا كان المستشرقون ، من المسيحيين واليهود والملاحدة ، قد عكفوا على فهم هذا القرآن وقنعوا منه لقومهم ما فهموه من كتاب هو أصل العقيدة الإسلامية ، وتناط الوطء الجامعة لأمتها في دينها وعقليتها المشتركة ومزاجها العام .

وإذا كانوا كذلك ما يزلون حتى اليوم يمكنون على دراسة كل تفسير جديد ليتبينوا مشجبه الفهم الإسلامى للقرآن .
 فالمسلمون أولى بأن يتقرر حقهم ، بل ولجهم ، في أن يفهموه على قدر استطاعتهم ، وأن يعرضوا عليه ما يشعرون من قصايا الزمان .

وليس من الضروري أن يكونوا على دراية بعلم الإسلام وأسرار لغة القرآن ، بل إن علمة المسلمين لهم مثل هذا الحق ، حين يصعدون إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم ، فيفهمونها كل منهم في حدود إدراكه ومعارفه ، وما كان عطاء ربك مخطوئاً .

ومحاولة فهم القرآن ، لا يمكن أن تعرض لإتكار أو نقص ، إذا كانت من قبيل التماس عطائه المباح لخلق الله .
 على أن تبقى في نطاقها الخاص المخلود ، فلا تتخذ دريعة ، بل تتحال التفسير بغير ضابط ولا قيد .

وسد باباً تاريخ الإسلام ، كان المسلمون يفهمون من كتاب دينهم ما يلبي حاجات وجودهم ، ويتمسكون منه دليل مساعده ونور مساهم حيناً اعتكروا الليل وأظلم الظلام .

وعلى مسار الزمن ، كان هذا القرآن هو الذى يرهف وعيهم وينير بصائرهم . وكان الكتاب الذى يصل إلى الأميين في عماريهم وقرى الريف ونحوع البراري الثانية عن العمران

ونقدر ما فهموا منه ووعوا ، قالوا عواذى الفضلال ودراهم الضبايع . وبهما يكن مستوى فهمهم ، أفا أعوزهم أن يذكرنا منه ما يحفظ عليهم كرامة إنسانيتهم ، وما يرفقون به انبغى والاطعاب ، والمبودية لغير خالقهم وحده .

وتسابع الأجيال ، كل جيل خلق لزمان غير زمان سلهه وحده ، وعطاء القرآن غير محطور ولا مقطوع ، يأخذ منه من شاء ما شاء ، دون حجر أو مصادرة .

• • •

لكن الأمر يختلف تماماً إذا اختلف فهم القرآن بتفسيره ، فيتصور بعضهم أن إباحة فهمه لكل الناس ، متعلمين وأميين ، مؤمنين وملحدتين ، تعنى إباحة تفسيره للناس دون قيد أو شرط لأن للتصير بقلم للناس فهم المفسر للنص القرآني . وغير منصور أن يتصلى لتفسير أى نص ، من لا دراية له بأسرار معناه وفقه سياقه ودلالاته .

وهناك من السلّمات البدئية فى التصوص بوجه عام . يفهمها من شاء كيفما شاء ، لكن تفسيرها للناس والفشا بها ، منصور على ذوى الحق بها والاختصاص .

وهؤلاء أنفسهم ، يتفاوتون بقدر درايتهم بأسرار النص . نحن المحققين مثلاً ، نستطيع أن نقرأ أى نص قانونى ، وأن نفهمه بالقدر الذى تتيحه لنا عقليتنا ومستوى ثقافتنا ،

ولكن دوائر القضاء والتشريع ، لا تعرف بغير المتخصصين
في القانون ، ولا تجيز لأي متقف منا ، غير قانوني ، أن يتصدى
لإفتاء الناس في هذا النص ، أو للدفاع به أو الحكم بمقتضاه .
ولا نعلم أن العمل القضائي في أي مجال - نيابة ومحاماة
وقضاء - لو صياغة ورأياً وفتياً - يباح لغير المجازين في
القانون .

ويتجاوز القانونيون بمقدار فقههم لأسرار نصوص القودس ،
إلى لمسى الذي تقضى فيه محكمة عليا بالبراءة في قضية
سبق الحكم فيها بالإعدام ، مستندة في تقضى هذا الحكم على
ملحط دقيق في نص القانون ، فات القضية الذين يطروا
في القضية من قبل ، وأصلروا حكمهم فيها . . .

ومن القضايا ما يحتاج إلى خبرة طبية أو اقتصادية أو فنية
لاعلم للقضاة بها ، فيندب الخبراء لفحصها وتقديم تقاريرهم
عنها . وبطل الحكم في القضية لرجال القضاء وحكم ، دون الخبراء
من لأطباء أو المحاسبين أو المهندسين أو الزراعيين أو غيرهم .

والأمر أدق من هذا في القرآن الكريم . .

من حيث لا تصح قراءته ابتداءً ، لمن يتصدى لتلاوته
أو تفسيره ، من المصحف مباشرة ، دون التلقي من شيوخ القراءة .
لأن القراءة في المصحف ، غير متروكة للاجتهاد كما

يتصور عامة المثقفين ، وإنما هي علم دقيق له قواعده في الصبط والأداء . والمعنى يختل تماماً ، لا يخلط في الصبط العموى أو الإعرابى فحسب ، بل بالوقف حيث ينبغى الوصل ، وبالوصل حيث ينبغى الوقف ، وقد يضع سر التعبير بالمصحف أو الإبداع أو اللد أو القصص في غير مواضعه .

من هنا كان الحظر التقليدى على طلاب حفظ القرآن : أن يأخذوه من مصحفى ، بمعنى التمسى عن أخذ القرآن ممن قرأه و المصحف ، ولم يلقه تلقيناً بالقراءة المشافهة على شيوخ القراءة ، فيغيب عنه وجه الصواب فى التلاوة والأداء .

ولا أحد يجبر على أى إنسان أن يقرأ من المصحف ، ولكن الحجر أن يتصلى بهذه القراءة للمصحفية لتلاوته فى الناس ، فضلاً عن أن يتصلى لتفسيره وتأويل كلماته !

وقد نعلم أن نظم الدولة ، فى أى بلد إسلامى ، لا تجبر لقارئ مصحف أن يتلو القرآن فى الناس ، فى مسجد أو إداعة أو مكتب لتخفيف القرآن أو أى محفل عام ، فكيف بالتفسير لمن لم يصح قراءته ، فيسوق الآيات - فى مقالات صباح الخير ثم فى الكتاب للطبوع - سرداً متتابعاً بغير فواصل خابطة للسياق محدثة للمعنى ؟

وكيف يجوز فى عاصمة إسلامية أن تنشر هذه القراءة المصحفية ، وفيها نخل الوقف حيث ينبغى الوصل ، وفيها إفساد

للدلالة بضمياع ضوابط الابتداء والانتهاء للآيات . نختلط به
العبارات فلا يدري القارئ ماذا فهم المفسر المصحفي من مقاطع
الآيات وفواصلها ؟

* * *

وأخرى من وجوه الدقة في النص القرآن . لأن الكلمة
لا تعطى دلالتها القرآنية بمجرد الرجوع إلى دلالتها المعجمية التي
تسع لمعان عدة لا يقلها النص .

ومعروف للدارسي اللغة ، أن الألفاظ يختلف استعمالها من
عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى . ولا وجه لأن نُحمّل كلمة
في أي نص ، دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه .

والأجاز لنا مثلاً أن تفسر لفظ « قرية » في آية
« وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا أَخْلَا فِيهَا نَذِيرٌ » بدلالة عصرية على أبسط
وحدة في التقسيم الإداري للمحافظات والمند والمقرى ، وهي دلالة
يرفعها اللفظ القرآني رفصاً باتاً : وأن تفسر لفظ « ساعة » في
قوله تعالى : « يُنْقِصُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » بدلالاتها
الاصطلاحية على ستين دقيقة . أو كما قال المفسر العصري
[مجرد ساعة زمان ، وكأنهم كانوا في غفوة أو نومة عصاري بعد
أكلة ثقيلة] ص ١٦٠ .

وأن تفهم كل الأعداد في القرآن بدلالاتها الرقمية المحددة
في علم الحساب ، فتكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر على

الحديد ، لا تزيد عليها شهراً أو بعض شهر . ويكون للمصطفى أن يستعمر إحدى وسبعين مرة . لم نزلت فيهم آية التوبة . حظاً له عليه الصلاة والسلام :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

والمفسر المصري لا يرى بأساً في أن يفسر لنا لفظ « يمشو » مثلاً ، بلفظ [ينصرف] في آية الزخرف :

« وَقَدْ يَعِشُ عَنْ ذِكْرِ الْوَحْيِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

حين نرى من لغة القرآن ، فرقاً بعيداً أقصى البعد ، بين الأعشى والمنصرف ، فنضرب أحدهما بالآخر ، ليس إلا غبط عشواء ، ويفسر قوله تعالى لبيه موسى عليه السلام :

« فَانطَلَعْ نَظْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَلِّسِ طَوًى » .

نأد [المقصود بالتعليل هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان التعليل : نفسه وجسده ، بالموت أو بالرهق ، والله يصورهما كتعليل لأيهما التمددان اللتان تحوّل بهما الروح في علم المادة !] ص ١٠٤ .

وبذلك ما لا تعرفه لغة القرآن ، من أى سبيل ا

وثالثة من وجوه الدقة في النص القرآني ، هي استعالة
 تسمير صيغة من صيغه أو عبارة من عباراته ، مبتورة من سياقها
 الخاص في الآية والسورة ، ومن سياقها العام في المصحف كله
 على نحو ما فعل المفسر المصري ، في استشهاده ببعض
 كلمات مبتورة من سياقها ، ليأخذ منها دليلاً قاسداً وشاهداً
 يحيله السياق .

كثل عبارته في ص ٤٩ ، وقد تكررت في ص ١٤٥ .
 [والله يقول عن كلامه ، عن القرآن : « وَمَا يَعْظُمُ تَأْوِيلُهُ
 إِلَّا اللَّهُ »]

بئر الجملة من سياقها ، فحملها على كلام الله ، في القرآن
 كله ، وإنما هي في التشابه منه فحسب ، بنص الآية :
 « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ
 مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 رَيْحٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ،
 وَمَا يَعْظُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا
 بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »

آل عمران ٧

ومثل استشهاده بقوله تعالى : « وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَغْطُ

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۖ لَكَ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مبتورة من
سياقها في قوم موسى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ
أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ،
وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا
يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۖ

البقرة : ٧٤

ولاعلاقة لما إطلاقاً بذلك الجبال يوم القيامة .

وكثيراً ما يتورط المفسر الحصري ، فيحمل آيتين أو أكثر
على معنى واحد ، ويستشهد بها لأمر بعينه ، وتكون إحدى
الآيات في سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

كنزل سرده ثلاث آيات متتابعة . ص ٨٠ - في شواهد
لما يبدو نعمة ، وقد يكون في الحقيقة قسمة .

وإحدى الآيات - الحرية - في متافى للمدينة المنورة
فعدوا عن الجهاد مع المصطفى في غزوة تبوك .

والثانية - للكون - في سياق الحديث عن قوم موسى .

والثالثة - آل عمران ١٧٨ - سياقها في الكفار من قريش ا

ويستشهد في ص ٩٠ - لتحرير النفس من الشهوات يأتي :
التوبة ١١١ ، وبقرة ٤٤ :

« إِنْ لَّهِ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَّهُمُ الْجَنَّةَ »

« فَاقتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » .
بانراً سياق الأولى في وعد الله للمجاهدين ، والأخرى في
رحم عبادة العجل من بني إسرائيل .
ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون للمجاهدين ، والكافرون الظالمون ،
في سياق واحد ، إلا عند من لا يفقهون .

ويأتي في موضوع « الشورى » - ص ١٥٦ - خمس
آيات سرجاً ، مبتورة من سياقها ، واثنان منها فحصب ،
يقبلهما موقف الشورى ، أما الثلاث الأخريات :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . ن ٤٥

« فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » لَمَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْبِحٍ »

النشئة : (٧١ ، ٢٢)

« وَلَا يَخِظْ بِخُضُنَا بَعْضُ أَرْثَابٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ »

العران ٦٤

فلاصلة لما بالشورى من قريب أو بعيد وإنما هي في حرية
الاعتقاد والآيات الأوتيان في الكفار ، والثالثة في أهل الكتاب !
وهذا الجهل بالسياق ، يتفاقم خطره إذا ما انتحل المفسر
المصرى لنفسه صفة المفتي مع جهله بأحكام الفقه والشريعة ،
يفتي الناس في الحلال والحرام ، بغير ما أنزل الله .
كأن يأتي بآية المائدة :

وَمَنْ قَاتَلَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ٢٩ .

ويفتي المسلمين بها ، [بأنها تضح المجال للعضو عن
الثائب ، فمن يسرق ويقول صادقاً : تبت ولن أسرق بعد الآن ،
يعطى لولي الأمر مجالا لرفع الحد عنه : ومن سرق للجوع أو
للحاجة ، لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه] - ص ١٧٤
فيبطل بفتواه إقامة حدود الله ، ويجعل قبول التوبة لولي
الأمر ، وهي في نص الآية لله تعالى ، سبحانه هو الذي يقبل
التوبة من عباده !

ويأتي بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَنْصَارِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ،
يفتي بأننا :

[لو أنعمنا الآية بظاهر حروفها دون أن يكون جوهر القضية واضعاً في اللحن ، فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في رسم ، زمن المبنى جيب والديكولتيه والجاينيز والصدر العريان والمشر المرسل والباروكات الذهب ، أمر صعب . والمير في شارع مثل عماد الدين أو فزاد أو سليمان باشا (؟) سيراً مطابقاً لحروف الآية ، هو الأمر الصير] .

وجوهر القضية عنده ، ففهم الآية ، هو أن [مجرد إرسال النظر لا ضرر منه ، ولكن الضرر فيما يجري في القلب والعقل نتيجة إسمان النظر الخبيث] ٨٦ .

ولم يشرح لنا كيف يمكن التحكم في القلب والعقل ، إذا لم نسد الدرائع بالنفس من البصر كما أمرنا القرآن ؟ بل استطرد في فتواه فقال ما نصه :

[ونحن قد نرى وجهاً فنهف بالقلب إعجاباً . الله ! ونقصد الخالق الذي صور وليس المخلوق . فلا تكون هذه لفتنة حلالاً فقط ، وإنما تكتب لنا حسنة 1] ٨٧

ومثل هذه الجرأة على الفتيا بالحلال والحرام ، بتحريف كلمات الله عن مواضعها ، ما نشره في (بوعلي مباح الخير . العدد ٧٤٩ ، ١٩/٤/٦٩) دعا على قارئ استغفاره في إحقة تعدد الزوجات :

[الواقع أن تعدد الزوجات للسلم مشروط بشرط صعب ،

بل مستحيل ، هو العطل « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَ حِذُّهُ ،
ويؤكد الله سبحانه استحالة هذا العطل : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » إنه الأمر للممكن الذي
لا يقدر عليه أحد . إنا مازلنا في منطقة الزوجة الواحدة ،
والإباحة هي [إباحة في الظاهر فقط] .
وبجاز عند المفتي المصري ، إجماع التقيضين ، في الأمر
الممكن ، قلبي لا يقدر عليه أحد .

وتورط ، كمادته ، في بتر الكلمات من سياقها الذي
يلفت إلى تطور العطل بين النساء ، وينبئ الرجال عن الميل كل
الميل مع الحديث ، ترفاً بالمجفوة من النساء :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ
فَلَا نَمِيلُوا كُلُّ الْمَيْلِ فَتَلَوَّعًا كَالْمُطَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ
كُلًّا مِنْ مَحْيَوٍ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ، ١٢٩ ، ١٣٠

• • •

ورابعة من دقة النص القرآني ، تتصل بما يسحه المفسر
المصري لنفسه ، من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ،

ويقول مثلا : المعمارى العظيم ، والمهندس الأعظم للكون ،
[والله هو سائق القطار الذى تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع
المهندسين] ص ١٨٨ ..

حين تعلم ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، من مبادئ علم
أصول الدين : « أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بغير
ما وصف به نفسه » فإذا جاء فى القرآن الكريم أنه تعالى :
الغنى والعلم ، لم يجوز لنا أن نقول مثلا : الثرى للمليونير ،
والأستاذ العلامة الميقرى

وإذا سمي نفسه بالملك ، فليس لنا أن نسميه بالقيصر
أو الإمبراطور أو السيد الرئيس !

وإذا قال تعالى إنه : ذو العرش العظيم ، لم يجوز لنا
أن نقول : ذو التاج والصولحان .

ويقول سبحانه : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » فلا يجوز لنا
أن نقبس عليه فنقول مثلا : ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها . . .
وهنا ما ينبغي عن المصريين فيما يتصلون له من الكتابة
فى القرآن والإسلام بغير علم ، فتجرى أقلامهم بألفاظ
وصفات لله تعالى ، ينسحبها لخص القرآن ، كماائق القطار ،
فضلا عن علم جولزها بناتا فى علم الأصول .

وشبه بهذا ، تورط المفسر المصرى فى خطبه عن [المعمار

القرآني ، وسيمفونية سورة الفاتحة] — ص ٧ ، ٨ .

ومن قله تورط الزميل الشاعر « نزار قباني » في مثل هذا حين بدأ له أن يكتب إحدى قصائد السور القرآنية على سبيل الشعر وفاته أن القرآن قد أصر على نفي وصفه بالشعر ، رداً على رعم المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر . والله تعالى يقول .

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

« فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ، إِنَّهُ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا
نُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ »

• • •

وأخطر من هذا كله . أن يُفسر الدكتور العصري للمسلمين كتاب دينهم ، بنصوص من الإسرائيليات . بعد أن جاهد علماءنا طويلاً لتحرير فهمنا اللبني من العناصر الإسرائيلية التي دسها اليهود علينا . وحرصوا على توجيه الفهم الإسلامي للقرآن بحروايتهم الإسرائيلية . حين تقطر عليهم أن يحرقوه كما حرقوا التوراة .

نقول في تفسيره العصري ؛ رجماً بالغيب :

[إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من صرب الخال ، وألوان من الرمز . وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلا : يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمان ووليمة خمر ويمسح المبد الرب الدموع من كل الوجوه . وفي تراثيل القليس أمرايم : « رأيت مساكن الصالحين . رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم صفائر السماكة والريحان . وكل من عفا عن الشهوات تلقته الحسان في صدر ظهور »] - ٦٧ .

ويُفسر آية النخاع :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ • يُغشى
النَّاسَ هَذَا غَلاَبٌ أَلِيمٌ »

رؤيا يوحنا اللاهوتي :

[« فَفَتَحَ بَرْ الحَاوِيَةِ فَصَعِدَ دُخَانٌ مِنَ الْبُحْرِ كَدُخَانِ أَنْوَدٍ
عَظِيمٍ . فَأَظْلَمَتِ لِلشَّمْسِ وَالْخَمَرِ مِنَ دُخَانِ الْبُحْرِ . وَهَذَا الدُّخَانُ
لَا يَقْتُلُ النَّاسَ وَإِنَّمَا يَعْلِبُهُمْ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ ، وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ
سَيَطْلُبُ النَّاسُ الْمَوْتَ وَلَا يَجِدُونَهُ ، وَيَرْغَبُونَ أَنْ يَمُوتُوا مِمَّنْ هَرَبَ الْمَوْتَ
مِنْهُمْ » . إِنَّمَا ظَاهِرُهُ طَبِيعِيٌّ ، يَقُولُ عَنْهَا الْقُرْآنُ كَمَا يَقُولُ يُوْحَنَّا
الْلاَهُوتِيُّ] . ص ١٤٢ .

ويعبر الذكور آية الكهف في يأجوج ومأجوج ،
تخميناً ، بجوار بين المارشال موتنجمرى وماوتسى تونج ،
عن المخاوف من غزو الصين للعالم ، بعد أن يصبح سكانها ألف
مليون . ثم يستطرد من هذا التخمين فيقول :

[رجع هنا فلما لو فتحت الإصحاح العشرين من سفر
الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ، فلما
نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات :

« مَتَى تَمَّتِ الْأَلْفُ سَنَةٌ يَحْمِلُ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ وَيُخْرِجُ
لِيُقْضَى الْأَمْرُ لِلْخَلْقِ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الْأَرْضِ . يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
لِيَجْمَعَهُمْ لِلْحَرْبِ ، وَعَلَدَهُمْ مِثْلُ رَمْلِ الْبَحْرِ » [ص ١٤٥

وبفسر آيات القيامة في القرآن فيقول :

[ونجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة في القرآن يقول : وفطرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كسج من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحها عن موضعهما ١٤٧] .

ويفسر قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

وَالسَّمَاوَاتُ » بما نصه :

[وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتي : ثم رأيت مياه جديدة وأرضاً جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد قياً بعد . . .] ١٥٠ .

• • •

فهل يتصور الدكتور المقصر ، أن فهمه للقرآن يكون عصرياً ، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتي ؟

فليعلم إذن ، أن يهود القرن المجري الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرناً ، ودسوا على الفهم القرآني شحنة من هذه الإسرائيليات التي يراها الدكتور مظهر عصرية ، ويرأها المتبحر العلمي راسب بما أقصم على الفهم القرآني ،

« تزال ناشبة في عقلية من يتصورون أنهم علميون ، من
أبناء عصرنا الذي اقتحم مجاهل للقضاء !

ووجد المفسر المعصرى سبيل الاقتطام لميدان التفسير
سهلاً بالمعقول عن ظاهر للنصوص القرآنية ، إلى مجاريات
عصرية لم تسمع بها مدرسة النبوة ولا عهد لنا بها في لسان العرب
ولغة القرآن ،

حين يعلم فقهاء النصوص ، أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح
بغير قرينة دالة على قصد المعقول عن ظاهر النص وأصل المعنى !

لكيلا تَظِلَّ المقاييس !

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »
قرآن كريم

« ليس كلَّ مَنْ أُحِبَّ أَنْ يجلس للحديثِ
والتفتيا جالساً ، حتى يشارَرَ فيه أهلُ الصلاحِ
والمفضلِ والجملة - الاختصاص - فإن رأوه لذلكِ
أهلاً ، جلس . وما جلسْتُ حتى شهد لي سبعون
شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك »
الإمام مالك بن أنس

حرص المفسر العصري على أن ينشر مع مقالات تفسيره
المجلة ، كل ما تلقى من رسائل الترحيب والتأييد .

وعده واضح ، في أن يلتمس من نشر هذه الرسائل ،
ما يواجه به موثق من قضية التفسير العصري ، فيما نشرت لي
صحيفة الأهرام .

وكذلك يحذر الدين خطبهم هنا الأسلوب الجديد ،
لا يدرون مزلق التمر فيه والفضال .

ولا أرى أن تشغل أمتي يجدل عقيم حول هذا الخلاف ،
ير من يريدون لما أن فهم القرآن كما بيته لها مفسر عصري ،
ومن يشعلهم فهمه كما بيته نبي الإسلام وفهمته مدونة السوء

لكي لا أملك حق السكوت على شبه خطيرة تفضل بها
المقاييس وتختل الموازين ، فأدع الناس يقرءون ما نشرته المجلة
لأستاذ جامعي - كان يشغل كرمي الأستاذية للفلسفة الإسلامية
بجامعة القاهرة - وأترك مقاله يحضى في الناس ، دون تعليق .

لقد تطوع الأستاذ الدكتور عياد أمين ، قاضي بحق
الاجتهاد في تفسير القرآن ، لأى عصري دون دراسة أو مؤهل
بل إنه نارك كل خطأ يحتمل أن يتورط فيه مثل هذا المفسر ،

وقرر له الأجر من الثواب ، على أى خطأ .

وأ نقل نص عبارة — من عدد المحلة رقم ٧٣٦ بتاريخ ١٩٧٠/١/١٢ — بعنوان : الاجتهاد فى القرآن واجب على كل

مفكر : [قرأى أن القرآن لم ينزل للمتخصصين ، وإنما نزل للعالمين وأن ابن عباس ، وهو حجة التفسير فى زمانه ، لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات إلا الفطرة السليمة ، والله يقول فى كتابه : «يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» والدكتور مصطفى محمود كما يتبين لكل قارئ منصف بملك هذه الفطرة السليمة ، وهو مشكور على هذه المحاولة ، فإن أخطأ كان له أجر المجتهد ، وإن أصاب كان له أجران] .

فرائها ، فشعرت بأسمى عميق :

القضية التى نحن بصلدها ، تتعلق بتفسير القرآن ، وكيف سدغ الخلط بين التفسير ، وبين نزول القرآن للعالمين ؟

وكيف تصور ، أن الاجتهاد فى التفسير مباح للعالمين ا كأنه لا يبرى أن الاجتهاد فى أى مجال ، إنما يباح لدوى الخبرة به والفراية ، أو « أهل الجهة » بتعبير السلف .

وعصرنا يؤمن بأن أصحاب التخصص ، هم الذين يجوز لهم الاجتهاد ، فهل كان الاجتهاد مباحاً لعامة الناس فى تفسير

القرآن والفنبا في أحكامه وشرعيته ؟

الذي أجمع عليه الأئمة ، أن الاجتهاد في ذلك محظور على غير العلماء .

وبمصرى الحظر على العلماء ، فيما هو من النيات ، أو المشابه ، ويحظر عليهم التفسير بمجرد الرأي ، دون استناد إلى شاهد ودليل ، من صريح النص أو القياس .

ونص عبارة السيوطي في (الإقحان) :

« أما ما يجري مجرى البنيوب ، كقيام الساعة . . . وكل منشأه في القرآن ، فلا مباح للاجتهاد في تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن والحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

« وأما ما يطمع العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذي ينسب عليه إطلاق التأويل . وكل لفظ أحتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي » (١) .

وسبق القول فيما اشترطوا في التفسير من شروط الأهلية ، فلم يتصوروا قط أن يتصدى للتفسير من أعورته أدواته ، وجعلوا علوم العربية من علوم القرآن التي لا يجوز أن يجعلها

مفسر وتقولوا في ذلك كلمة الإمام مالك :

« لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ غَيْرِ عِلْمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ يُفسِّرُ كَلَامَ اللَّهِ إِلَّا حَمَلْتَهُ نَكَالًا » .

ومن أئمة السلف، من تشددوا في موقفهم من إباحة الاجتهاد في غير الغيبي والمتشابه ، العلماء أنفسهم ، فألزموا المجتهد باعتماد الشواهد والدلائل ، حتى يتنى التفسير بمجرد الرأي ، وهو عندهم غير جائز . قالوا :

« وَلَا يَحُوزُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ بِمَجْرَدِ الرَّأْيِ ، وَالْاجْتِهَادُ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ . قَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » وقال : « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال صلى الله عليه وسلم : من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ^(١) . بمعنى أنه أخطأ الطريق إليه .

قال تعالى : « وَأَوْثَقْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

« لما ورد بيانه عن صاحب الشرع فقيه كفاية عن فكرة من بعده . وما لم يرد عنه بيانه ، فقيه حيثه فكرة أهل العلم

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .

عده . ليستلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد^(١١) .

وحلاصة أقولهم في النفي عن التفسير بالرأى : أنه انحصير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير ، وتفسير المشابه الذي لا يعلمه إلا الله ، والتفسير المقرر للمذهب الثامد ، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً . فيرد إليه بأي طريق ، والتفسير بالاستحسان والمهورى ...^(١٢) .

من إسم لفتوا ، مع ذلك ، إلى خطر التفسير بالرأى ، مع صحة الطريق إليه . فقد يحتمل اللفظ معنى : فيحتاج حمله على أحدهما ، إلى معرفة أنواع من العلوم - التي بحر في العربية واللغة . ومن الأصول ما يترك به حدود الأشياء وصيغ الأمر والنهى والحبر ، والمجمل والمبين ، والمعموم والخصوص ، والمقيد والمحكم ، والمتشابه والمظاهر والمؤول ، والحقبة والمجاز والصريح والكتابة . ومن المروع ما يترك به الاستساق .

وهذا أقل ما يحتاج إليه : ومع ذلك فهو على خطر ، وعليه أن يقول : يحتمل كلا ، ولا يجوز ، إلا في مُحْكَمِ اصطلاح الفتوى به ، فأدنى اجتهاده إليه .

وأكاد أسمع من يرفض أن نحتاج بهذه المبادئ المنهجية ، لنقلها من تراث عصور غيبت ، لنأخذ بمبدأ الأستاذ الخامس في إباحة

الاجتهاد لمن شاء وله أجره ، أخطأ أو أصاب !

وأقول : إن عصرنا لا يمكن أن يزدرى مبدأ من مبادئ المنهج لأن عصوراً غابرة سبقت إليه . وللدكتور عثمان أمير فنيا أعلم ، قد شغل نفسه بمنهج ديكرات ، وبما فهمه من منهج الشيخ محمد عبده ، وليسا من أبناء هذا الزمان ! . .

و « ابن عباس » الذي احتج به لإباحة التفسير دون دراسة أو مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه ، وأحد كتّاب الوحي .

فهو صحيح أنه [لم يلزم الدين في معهد ، ولم يكن يعمل من المؤلفات للتفسير إلا المطهرة السليمة] ٢

الذي أعلمه ويعلمه تاريخنا ، أن ابن عباس درس الدين الإسلامي في مدرسة النبوة . وكان نبي الإسلام نفسه ، هو معلمه في هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهل الصحبة للمصطفى للبحث بدرس الإسلام ، وملك معها : أهلية كتابة الوحي ، وتقاة عريته ، وأصالة فصاحته ! فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرآن ، أو غيب عنه أسرار لفته وبيانه ، أو يخلط بين الحكم منه والمتشابه ، ولا بين المطلق والمقيد ، والعموم والخصوص ، والصريح والمؤول ، والحقيقة والجهاز . . .

وكذلك كان السابقون الأولون من الصحابة رضي الله عنهم :
 تفقوا القرآن مباشرة من المصطفى ، ودرسوا الدين الإسلامي
 في مدرسة النبوة ، ولتحقوا بأول معهد عرفه تاريخ الإسلام
 « المسجد النبوي في دار الهجرة » .

وبصحبته المصطفى ، كانوا المرجع الأول بعده ، عليه
 الصلاة والسلام ، في قراءة القرآن ، وترتيبه ، وسائر علومه ،
 كما أخذوها مباشرة عن مبلغ هذا القرآن .

وبالدروس التي تعلموها من المصطفى ، وحضروها
 في مسجد المدينة ، كانوا المراجع الأصيلة للسنة النبوية من :
 قول ، وعمل ، وتقرير . . .

وبأصالتهم في الفصحى وعراقهم في العربية ، كانوا
 معلمي جيل التابعين ، ومصدر توثيق لنصوص الفصحى من
 عصر صدر الإسلام وأواخر الجاهلية ، حين احتاجت الأمة
 إلى جمع تراث العربية وتلويحه ، كي يستنبط منه علماءها
 معجم ألفاظ الفصحى وقواعد نحوها وأساليب بيانها .

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستوى مماثل من
 الدراية والتمقنه ، بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

في عملية جمع القرآن ، كانت صفوة من حفاظهم وكتب

الوحي منهم ، هي التي تُدبِّت للعمل بالتحليل مع التفرع والاختصاص .

وفي جمع أحاديث المصطفى - عليه الصلاة والسلام كان علماء الحديث يشترطون لصحته : اتصال إسناده برواية العدل ، الضابط عن العدل الضابط إلى أن يصل الإمام إلى التابعين ، فالصحابة ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون بين الأسانيد ، ولم نسمع قط أهم سورا بين رواية الحديث ، بل الذي نعرفه من مبادئ علوم الحديث ، أهم أنزلهم منازلهم من العتلة والضبط ، بأدق المقاييس للجرح والتحليل .

فكيف تختلف مقاييسنا العصرية ، فنحتاج لإمادة التفسير ، بأن « ابن عباس » لم يدرس الدين في معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير القطرة السليمة ؟

كأن ملوحة النبوة ليست معهلاً نعرف به لدرس الدين !

وكان المسجد النبوي لم يعرفه التاريخ ، المعهد الإسلامي الأول !

وكان محبة المصطفى ، وكتابة الوحي ، وأصالة العربية ، لا تدحس في مؤهلات ابن عباس لتفسير القرآن !

القرآن نزل للعالمين . ولم ينزل للمتخصصين

لكن تضييره ليس مباحاً لكل الناس ، والاجتهاد فيه محظور على غير العلماء .

بل إن قراءته ليست مباحة للعالمين ، يفرؤه كل فرد باجتهاده ، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع ، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعة عشر قرناً .

وعلى كتاب الأجيال ، يلتم المسلمون هذه القراءات .
لا يحبذونها عنها باسم الحرية ، ولا يرفضونها بشعار [بسقط
الحمود والاحتكار] !

* * *

والأمر كذلك في الفقه الإسلامي المستمد من نصوص القرآن والسنة وما يقاس عليهما :

الإسلام ديننا جميعاً ، والقرآن نزل لنا جميعاً .

لكن باب الفقه لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، مفتوحاً

لكل العالمين الذين نزل لهم القرآن !

ولم يتروك الأمر فيه مباحاً لاجتهاد غير الفقهاء ، ولا عليهم

أن يحطوا بها لا يفقهون !

وإما انتقلت الإمامة في الفقه لأئمة أربعة من المسلمين
مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل .

حائز أن يقول فيهم أستاذ جامعي عصري ، مثل الذي
قاله في ابن عباس : [لم يدرسوا الدين في معهد ، ولم يكونوا
يملكون من المؤهلات إلا القطرة السليمة]

فاسمعوا أيها الناس :

« لإمام مالك بن أنس » ، الذي أجمع المسلمون على إمامته
ما كان لأحد « أن يفتي ومالك في المدينة » ، لم يصل إلى هذه
المرتبة العليا من التخصص الفقهي - أو الاحتكار بمفهومه العصري
الغريب - بغير دواصة مؤهلة .

بل تعلم في مدرسة ، وصار على منهج ،

وتلنى من شيوخ انقطع بعضهم سنين دأباً ،

ثم لم يجلس من تلقاء نفسه للفتيا والتدريس ، دون جارة
علمية من قهواء زمانه : أهل العلم والفضل ووجه الاختصاص .

أما مدرسته ، فكانت « المسجد النبوي بالمدينة » وفي
مكان منه حلقه المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر
والمببر .

وفي هذه المدرسة يقول « ابن شهاب الزهري » أحد شيوخ مالك « جمعتنا هذا العلم من رجال في الروضة » .

وعند من هؤلاء الرجال سبعة من فقهاء أهل المدينة المنورة على أن « مالكا » لم يدخل هذه المدرسة إلا بعد أن تأهل لها في « مكتب تحفيظ القرآن » قائم حفظه ثم اتهم تجويزه ، قراءة على « نافع بن عبد الرحمن » إمام أهل المدينة في القراءة وأحد القراء السبعة الأئمة !

وأما عن منهج دراسة مالك ، فكان فيما حلقه مؤرخوه : يستوعب كل ما يستعان به على فهم القرآن : من علوم العربية ، وسنن الرسول عليه الصلاة والسلام — وأحكام القرآن ، وعلومه ، وناسير والمغازي ، مع قدر من الحساب والرياضيات .

وأما شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، فمنهم :

« ربيعة بن أبي عبد الرحمن » الذي اشتهر بريعة الرأي وقيل فيه : ذهب حلاوة الفقه منذ مات ربيعة .

و « ابن هرمز الأصم » الذي انقطع إليه مالك سبع سنين لم يحطه بغيره . وفيه يقول ربيعة الرأي : « ما رأيت عالماً قط بعينك إلا فاك الأصم » ، ابن هرمز .

واشتهرت في بيتنا العلمية الإسلامية ، وصية ابن هرمز لتلميذه مالك :

« ينبغي أن يورث العلم بطسائه قول: " لا أدري " فإن العالم إذا أخطأ " لا أدري " أصيبت مقاتلته » .
ومن شيوخ مالك : « ابن شهاب الزهري » أعلم الحفاظ بالحديث .

و « نافع » ، مولى عبد الله بن عمر « الملقب بالإمام العدم » ، وأحد رجال الإسناد في السلسلة التي تعرف بسلسلة الذهب . وفيه قال تلميذه مالك : « كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر ، لا أباي ألا أسمع من أحد غيره »

والإمام « جعفر الصادق » الذي تخصصه الشيعة بأسرار التفسير ، وتنسب إليه كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه من علم القرآن .

وغيرهم كثير ، لا أحصيهم هنا عدداً .

وبال « مالك بن أنس » إجازته العلمية من أهل بلخه ، أي أصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلاً لأن يجلس في مدرسة « مسجد المدينة » للحديث والفتيا .

قال : « ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والبلخه ، فإن رآه لذلك أهلاً ، جلس . »

« وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم ، أني موضع للثقة » .

هل يكفي هذا المثل ، إقناعاً بحجزة التخصص وكرامة العلم ، وإتصافاً لأئمة السلف الذين توهبوا الدكتور عثمان أمين أنهم لم يدرسوا الدين في معهد ، ولم يحملوا من المؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

أحسب أن يكون الأستاذ الدكتور متغنياً في حماسه للتفسير العصري . بسابق موقفي من كتابه في (الجوابية) حين أنكرتُ منه بدعة و التفسير الجوافي للقرآن « في مقال لي بالأهرام عقب ظهور الكتاب .
وأستغفر الله لي وله .

• • •

دفاعاً عن منطقِ عصرنا
وكرامةِ عقولنا

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُبْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ۝
فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَكُّلِي عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرْدِ إِلَّا
الْحَيَاةَ النَّبَا ۝ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۝
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ۝ . صدق الله العظيم
• سورة النجم •

شئت « صباح الخير » كلمة لكاتب زميل من محروبيها ،
 . ومعنى هنا القضايا لا الأشخاص يرجو فيها أن أعبر
 موفى من التصير العصري ، [إنا أنا استلهمت في هذه
 القضية صميم الفكر المشغول بمستقبل الإنسان ، لا عمامة
 المختوف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته التي
 يأكل منها خبزها] .

وكأنما تصور السيد الزميل ، غفر الله له ، أنني أحمي كرمي
 الأستاذية الذي أشرف به في الجامعة : من منافسة زميله
 المقصر العصري !

أو كأنه وهم أنني أنحني تنحي عن اختصاصي في
 الدراسات القرآنية وقضايا الفكر الإسلامي ، لينتدب لها المقصر
 العصري مكاني ، ويدعى بليلا عنى أستاذاً زائراً جامعات
 المشرق والمغرب !

ما علينا . . .

ولننظر مما في فئة هذه العصرية المدعاة والعلمية
 المعلوبة .

* * *

باسم العصرية ، أقول إن كرامة إنسان العصر تأتي

عنه أن يأخذ العلم ، أى علم ، من غير أهله . وتذكر أن تروج فيما دعوة إلى إهدار قيمة التخصص ، وإنا لمعلم علم اليقين أن عصرنا ما حقق شيئاً من تقدمه العلمي الرائع إلا بإيمانه بالتخصص . وإصراره على وضع الحدود التي تحول دون استباحة أى مجال للمعرفة ، لغير ذوى الخبرة والاختصاص .

وإذا جاز لطبيب أو فلكي أو زراعي ، أن يفسر للناس القرآن بما تيسر له فهمه منه ، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءة كتاب في الطب أو الفلك أو الزراعة ، أن يفتي الناس بما تيسر له فهمه منها .

وإذا استباح كل عصرى أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل ، يدعى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين ، ساع أن نعطل وظيفة المفتي بفصاحة الشريعة ، فلا يحتكرها فئة الإسلام وهو ديننا حقيقاً !

وساع بالمنطق نفسه ، أن نوفر على الأمة ، وهي منقلة بأعباء التنمية وتكاليف معركة الوجود والمصير ، أعباء كليات اللغة العربية والشريعة والدراسات الإسلامية ، من حيث لا حاجة لنا إلى من يحتكرون التخصص في هذه العلوم أو يحترمون الفقه بها ولقنوا فيها ، والعربية لغتنا جميعاً ، والإسلام دين الأمة كلها ، والقرآن نزل للعالمين !

بل يجوز أن نسد ذرائع الاحتكار والاحتراف ، فلا نسمع

لفئة من علماء القانون أن يحتكروا القانون المدني ، وآخرين القانون الجنائي ، أو القانون للدول ، أو الشريعة الإسلامية ، كيلا يحجروا على غيرهم من حملة إجازة الحقوق ، ويصادروا حقهم في حرية الحركة ، ويضيّقوا في وجوههم مجال العمل .

ولكن تأخذهم بمنطق « عمومية الثقافة » ، واشتراكية العلم ، وحرية إنسان العصر ، فلا يفكرون بعقلية من يدافع عن اختصاصاته الرسمية !

أي تزيف العصرية يسمح بمثل هذا الإهتار لقيمة التخصص والمنح لفهوم الحرية والتقدم ؟

وهل ترانا نحقق عصريتنا ونأمن على مسيرتنا مع رواد الفضاء وغزاة القمر ، إذا نحن نحرّقا من منطق زمن مصى لم يكن يسمح لأى مسلم « أن يفتى و مالك في المدينة » ونادينا بسقوط هذا الجعود والاحتكار ، فأبجنا لمن شاء من العالمين للذين نزل لهم القرآن ، أن يفتح في إحدى المحلات العصرية داراً للإفتاء في الحلال والحرام ؟ !

باسم العلم ،

أعلن رفضه لمن يتصلون للفتيا بغير علم ولا مؤهل ، ويغرضون في تفسير القرآن بطوم عصرنا ، وقصارى ما نعلمه أن أى معسر منهم ، له تخصص في علم واحد من هذه العلوم ،

فلان قيل إنه يتحدث في مائتها بمعارفه العامة ، قلنا إن أى صالط بالمدرسة الثانوية ، له مثل هذا الإمام العام بعلوم لعصر ولا يعوز قهايم العربية والقرآن ، هذا القدر من المعارف المتاحة لعامة المثقفين ، وليسوا مع ذلك بحيث يكتسبون في التشريع مثلاً بمعارفهم العامة ، ويدعوى عمومية الخصم الشرى الذى هو للناس جميعاً على سواء !

ولا أتروى في الجهر بأنه لا حرمة فيما لمن لا يحترم العلم ، بل نسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم ، وجرأته على أن يقول : [أدعى] فيما لا يدعى !

قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن تحصل بالطب ، وأن يكتب خير زراعى فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والمحاكاة والزروع ولواقع الرياح .

وأن يلتفت خير كيميائى إلى آية القدرة الإلهية في تسوية من الإنسان لا يشبهه بينان غيره من ملايين البشر .

وأن يقف عالم جغرافى عند آية القدرة في البحرين يلتقيان : هذا عذب فرات وهذا ملح أحاج ، وبينهما برزخ لا يبعدان

وأن يقف عالم فلكى عند آية القدرة في السماء ومعها الله بغير عمد ترونها ، وما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولى الألباب .

قد أفهم هذا كله ومثله معه ...

ولكن الذي لا أفهمه ، وما ينبغي لي أن أفهمه ، هو أن
يجرؤ معسرون عصريون على أن ينحوضوا في كل هذا ،
فيخرجوا على الناس بفاسير قرائية فيها طب وصيدلة وطبيعة
وكيمياء ، وجغرافيا ومنتحة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات
وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وتكنولوجيا . . .

إلا أن أتخلى عن منطق عصري ، وكرامة عقلي فأحد في
المجال العلمي بضاعة ألف صنف معروضة في الأسواق !
والأ أن أتخلى عن كبرياء علمي وعزة أصالي فأعيش
في عصر العلم بمنطق قريبي حين يفد عليها الباعة الجردلون
بألف صنف ، يروج لها ضجيج إعلاني بالظبل والزمير ،
عن كل شيء لكل شيء ، أو « بتاع كله » في فكاكتنا لشعبة
الساخرة بالادعاء !

باسم العلم ،

أرفض هذه الردة العقلية التي ترجع بنا القهقري إلى دهور
عابرة ، فتزين لنا أن تفكر بالمنطق الأسطوري الذي يتأق فيه
إنسان عن ساحر من الجن ، كلمة السر التي تفتح له أبواب
الخزائن الموصلة وتبيح له كنوزها الخفية ، فتصور أن من
العصريين من يستأثر بكلمة السر ، من مثل : « افصح
باسم » فتفتح له خزائن علوم الدنيا ولدين ، وتبيح له
خفايا الغيب وأسرار الحكمة ، فلا يلبث أن يخرج على الناس

وفي جواربه طرائف وغرائب من كل علوم العصر، ومعها مكتشفات
من مجاهل المتأخرين ، وما استأثر الله به من علم الغيب
والساعة واليوم الآخر !

أرخص أن يسخر مفسرون عصريون بمنطقنا العلمي -
عن الدين نعلمنا أن نقول : "لا ندري" حين لا ندري ، فيريوا لنا
أن نقل تأويلات لهم يزيفونها بقتاع العلم ، وأول ما يعبه تلاميذ
من مبادئ العلم ، رفضه الرجم بالظن . وأول ما يلومون
مهرج المعرفة ، هو أن القرآن حرر العقل الإنساني من عرور
الخصوص في الغيبات بغير علم ، وليست مما يخضع لتجربتنا . وإما
حسب المؤمنين منا أن يتوقفوا فيها عند الذي جاعهم به الدين
الذي آمنوا به ، أما غير المتدينين ، فحسبهم أن يؤثموا بالعلم
الذي لا يبيح لأحد أن يخوض فيها لا يعلم ، ويحظر القطع سوى
أو إثبات في مجاهل ميتافيزيقية لم يصل العلم إليها .

وأرانا اليوم نواجه في عصر العلم ، من يتسلطه الدنياه
بكل علوم الدين والدنيا ، ومن يخوضون في الغيب فيفسرون لنا
آيات القرآن في الساعة والقيامة بما لم يأت فيه نص ، ولا كشف
عن غيبه علم !

ونلتج بهم الاستهانة بعقليتنا العلمية ، وننتقدنا العصري ،
أن ينصروا أن هذا ما يحوز في عصر العلم :

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخِيتُّونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ الظَّنُّ

لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا • فَأَعْرِضْ عَنْ قَوْلِي عَنْ ذِكْرِي
وَلَمْ يُرَدِّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ •
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اتَّقَى •

• • •

فإذا عن القرآن الذي يراد لنا ، باسم العلم ومنطق العصر ،
أن نهيه بتفسير عصرى يحرقنا من الجلود على فهم الصحابة
للقرآن في مدرسة النبوة وعصر المبعث ؟
ذلك ما يحتاج إلى بيان للناس ، في مقالٍ يلى . .

بَيِّنَةُ الْعَنْكَبُوتِ !

مَثَلُ الْفَلِينِ أَتَحْتُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ
أَرْحَمَ الْبَيْوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ • إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ • وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالِمُونَ •

صدق الله العظيم

سورة العنكبوت

أستأنف القول من حيث انتهى في المقال السابق إلى رفض
الامتنان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الردة العقلية
التي نرجع بنا القهقري إلى منطق العصر الأسطوري ، فتخايلنا
بكشف المحجوب من علم الغيب ، وتدعى امتلاك مفتاح
السِر لكل علوم الدين والدنيا والآخرة !

أو « يتاع كله » كما تقول العامة بفطرتها السليمة التي
لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شيء !

وأعرج اليوم لبيان المزلزل للخطر ، الذي يتسلل إلى
عقول أساء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تنأى بهم عن فهم مدرسة
السوة للقرآن ، وتحملهم على الاقتناع بأن القرآن إذا لم يقدم
إليهم أسرار التكنولوجيا والبيولوجيا والأنثروبولوجيا ، والقدرة
والكمبيوتر والإلكتروني . . . فليس صالحاً لزماننا ولا لحديثنا
أن نسيغه عقليتنا الطبيعية ، وبقيله منطقنا العصري .

فإذا اكتشف المفسر العصري ، من أسرار علمية لما
[جاء على لسان ذلك النبي الأُمي الذي لم يكن يعرف ،
لا هو ولا قومه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا
وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوجيا] ؟ ص ٤٨ .
وبإذا يقدم لعصرنا من تفسير علمي لذلك [القرآن المذهل ،

أتى به رجل أوى لا يعرف القراءة والكتابة... بلوى داعى عم
 فى بيته بلوىة من أجلاف البلوى صحراء جرداء مقطوعة الصلة
 بالخصارات والعلوم [٢ من ٢١٢ .

ماذا يمن به على أبناء هذا الزمان ، من عجائب [أمرار
 هذه العلوم التى غابت حتى عن « دارون » لمجرد أنه لم يريد
 الصانع الخالق للمهنس وهى تهنس وتخلق [٢ من ٤٧ .

اكتشف لقراءة القمر ، فى آية يس :

وَالْقَمَرَ قَلْبُونَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ،
 أنها [تشبيه حرفي للقمر الذى لاخضرة فيه ولاماء
 ولاحياة] من ٥٥ .

لسمع بعد شهرين من نشره لهذا الاكتشاف ، أن العلماء
 السوفييت مايزالون يلحسون ما يبدو لهم فى الصور التى التقطها
 « لونا » مطليم عمران وآثار حياة !

واهتدى إلى [شفرة فواتح السور ، مثل كهيعص ، طسم ،
 حم ، عسق ، مما لم يقل لنا النبى لأنه يعلم له تفسيراً] من ١٩
 فكان تفسيره العبرى لها [أنها حروف لها معنى فى ذاتها ،
 وكلمات لها مرها وملولها وإن غاب عنا فهمها . وهى علوم
 عليا سوف نصل إليها فيما بعد] من ١٩٥ .

وكشف عن سر الخلق من « حمل مسنون » [أنه اتفاق
عربي ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمئة
سنة] ص ٥١ .

ثم ترك للناس أن يفهموا ما شاعوا ، من اكتشافات العلم
عن خلقنا من حمل مسنون !!

واكتشف لما يشغل العصر من نظرية التطور ، تأويل
لكلمات الله : « أَلَيْسَ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .
بصياغة ممسوخة شوهاء لنظرية « داروين » لم يقل بها أى علم ،
ونرفضها الثقيلة الإسلامية ص ٥٢ .

وقدّم إلى عصرنا من قوله تعالى : « أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا
أَوْ نَهَارًا »

أنه [لا تفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة ،
نصمها ليل ونصمها نهار ، فإذا جاءت الساعة فإن نصف
سكانها يكونون في ليل والنصف الآخر في نهار .] ص ١٤١

على غير ما فهمته مدرسة النبوة ، وقد جرى لسان
العرب على القول : آتيك ليلاً أو نهاراً ، فلا يفهم منه إلا

التوقيت الزمني الذي لا يتعلق بكروية الأرض الواردة |

وكتشف لعصرنا من أسرار الرياضيات وقوانين الطبيعة
في القرآن ، ما لم يمتد إليه أحد من عصر النبوّة إلى ما قبل ظهور
المفسر المعاصر :

[فن للتوحيد، نشأت كل أعتاد العلوم والمعارف] ص ١١٣ .
أما فلسفة العدد ، فيقصد بها لنا من تأويل آية المعارف :
وَنَعْرِجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

بأن [معنى هذا أن أيام الله هي كما يشاء الله ، فإذا
شاء يكون اليوم بألف سنة وإذا شاء يكون بخمسين ألف سنة
فهو ليس خاضعاً لزمته مثلما نحن خاضعون ، وإنما هو يخلق
زمته . وهذا شرح فلسفي رفيع لمعنى الألفية أو زمن من
لا زمن له] ص ١٣٨ .

ومن آية آل عمران :

وَأَقْبِرَ دِينِي اللَّهُ يَبْتُلِيكَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

استنبط المفسر المعاصر ما لم يحيط على بال أحد قبله ،

[من القوانين الإلهية التي نعرف الآن الكثير منها .] :

[قانون الضغط الأوزمي ، وقانون التوتر السطحي . ونسك
العمود المائي ، والتوازن الكهربائي والأيوني في المحاليل ، قانون
التفاضل للكيميائي بين هورمون وهورمون فيكون أحدهما حاكماً
على الآخر . وقانون دفع الفراغ ، وقانون الفعل ورد الفعل] س ٩٨

فأنتي قلتي الأبي أن يعرف هذه القوانين ، فضلاً عن أن
يبينها للناس ، كما يبينها هذا القصر العظيم ؟

وماذا تبغى الأمة من العصر العلمي ، أكثر من هذا
السرد لقوانين الطبيعة والكيمياء ، من النرة إلى الفلك ؟

وأضاف إلى علم عصرنا بأسرار الإلكترون :

[أنه محاسب في حركاته . فما بال الإنسان العاقل وهو
بالسنة للإلكترون كالخجيرة والفلك بالنسبة للإنسان ، وقد
نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم وليس في هوان الذرة
ولا الإلكترون] . س ٩٩ .

وأضاف إلى فهمنا لرحلة الحياة تفسيراً عصرياً يلائم عقلية
حين التليفزيون :

[أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تترك وتختفي
على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون

ثم تبدد وقزول عند انقطاع التيار . . . ثم تعود فتجتمع صور
أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود قزول هي الأخرى [

ص ٤٨٣ .

وقد تم إلى علم الجرائم والحشرات ، مارآه يليق بعصرنا من
رخص المسبية بالتوكل : فإذا توكلنا عليه ، تعالى ، [غل نحاف
الحرب ولا القنيلة ولا المرض ، لأننا أدركتنا وحطة الفاعل ، وأنه
لا فاعل في الحقيقة إلا الله . ليكروب لا يضر ولكن الله هو
الصار النافع . وهو الذي يسلط الأسباب ، هو الذي خلق
المعقرب والسهم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في
العروق . هو مناط الهلاك ومناط النجاة لا راد لقضائه ولا
معقب لأمره ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته] ص ١٨٧ .

حين نقول ، نحن تلاميذ المدونة القرآنية : إن الكود
يجرى على سنن مطردة ، وإن إرادته تعالى لا تتعلق بتفرض
منه : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

وكان تفسيره المصري لآية النمل :

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا
يَخْطِبُكُمْ مُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

[أن إدراك النملة لسايمان أمر ممكن ، مثل إدراك سليمان لله !] ١٢٢

ولم يحظر على بالنا من قبل ، إلا أن النملة تحبس بعريزتها موضع الحظر ، وتحاول تلقائياً أن تتغيه ، بهدى الغريزة والحام الفطرة ، واكتشف المفسر المصري لبيولوجيا الحيوان ودباميكيا الصل ، أن القرآن إذ أنث العنكبوت : «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، فَنَدَلَكَ مِنَ الإِعْجَازِ الْعُلْمَى [لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر . وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن] ص ٢١١ .

ويعرف المبتثون من طلاب العربية ، أن القرآن جرى هنا على لغة العرب القين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما أنثوا مفرد النمل والنحل والود ، فلم يقولوا في الواحد منها ، إلا نملة ونحلة ودودة ، وهو تأنيث لغوي لاعلاقة له بالتأنيث البيولوجي كما وهم للمفسر المصري .

وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق ، وكل ما يعرف في المصطلح اللغوي بالتأنيث المجازي ، دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية ، أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجي !

وقيل أن ينزل القرآن بآيات :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
يُبُونًَا »

« قَالَتْ نَعْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّعْلُ أَذْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ » .

« كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَسُّهُ أَنْ يُضْرِبَ مَثَلًا مَا نَحْنُ مُعْرِضُونَ »

فَمَا فَوْقَهَا » .

كان أي عربي وثني « من أجلاف البادية » يطلق بها على
التأنيث ، فلا تصور أن في ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه
عصرنا من بيولوجيا الحيوان !

ثم تورط المفسر المصري من هذا الوهم ، إلى وهم أشنع ،
فأصاع كل السر الثاني للآية تضرب المثل لأوهن البيوت
بيت لعنكبوت ، حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية :

[وهي أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب
ثلاث مرات ، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة] . من ٢١١

وعلى هذا التفسير المصري ، لا يصلح بيت العنكبوت
مصرافاً للمثل على الوهن ، لأنه ليس أهون من بيت للصلب ،
أو من بيت الحرير لثقله دودة القز !

وقريب من هنا . تورطه في تشبيه صلة الإنسان بخالقه ،
بالخيل السرى :

[والشرك في الحقيقة أشبه باقطعاع الخيل السرى الذى
يقصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته . . بين الإنسان
والله] ص ٩١ .

وقد يعلم الأميون منا أن الخيل السرى يقطع عقب الولادة ،
إيماناً باقتضال الجنين عن رحم أمه . وبلد حياته مستقلاً
عها . فهل يكون لنا بأمتنا العلمية في التشريح ، أن نهم
هذا التفسير المصرى . أن قطع الخيل السرى يبت صلنا
مخالقنا ؟ وهل يكون لأبنائنا في كليات الطب ، أن يروا في
انقطع الخيل السرى إيماناً بالموت وبت مصدر الحياة ؟

• • •

نحن علماء النصوص وأسئلة التخصص ، نرفض هذا
العبث بحزمة كتاب لا يحل لنا أن نفهمه إلا كما يتنه الرسول
عليه الصلاة والسلام .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعات هذه الردة العقلية
التي تنجم في كل واد ؟

وهل يقبل علماء المعصر ، أن يلغوا قانون السببية ،
ويقولوا لأبناء هذا الزمان [لا تخافوا من الميكروب والسلم ،
فالميكروب لا يضرب والسلم لا يؤذى] ؟

ذلك ما لا أتصوره . . .

ولا يتصوره معي أبناء أسمى التخصصون في الطب
والهندسة والقانون والموسيقا والرياضيات والعلوم السياسية ،

ثم ماذا عن الفقيها ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاء في الكتاب الذي
أسوأ به

ول دراستنا المتهيجة . تلفت الطلاب إلى أن العلم يرفض
كذلك أن نحوض فيما لا علم لنا به .

وإني تفسير عصري ، يجادلنا نحن أبناء عصر القضاة
والقمر ، بعجائب وغرائب من علمه بالقيس . وكشفه
الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبي مجال
لأي قول فيه .

ومن دار الإفتاء المصرية ، صدرت بتاريخ ١٠/٤/١٩٧٠ ،
فتوى المفسر المصري بأن [كرسى الله هو قلب المؤمن ،
والعقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذي يكتب
الله عليه ، على الجينات الوراثية في خلية الجنين ، يكتب قدر
الولود وحياته] ؟

والدكتور المصري المفسر يقول لأبناء هذا الزمان: إن [و

هذه الشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب
شهوداً [ص ١٢٢ .

وإن التذير للضالين بعقاب جهنم : [مثل تخويعك
لأسك حيناً تخفوه من إهمال نظافة أسنانه ويقول له : إذا لم
تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك . .
وبالطبع لن تأكل الفيران أسنانه] ص ٦٨ .

وإن جنة الآخرة [هى حجة ومقام ، فيها كل ما يعرف
على الأرض ، ولكن مع غلوت هائل فى الرتبة ، مثل التصاوت
بين الزمن والأبد ، ومثل الغلوت الذى ذكرناه بين طعم
قطعة سكر ، وطعم اللذة الجنسية الخاصة بالنسبة لبالغ] ص ٦٢ .
وإن ناموس القيامة بالخصار [هو تجلى لفة بفاته] ص ١٥١ ،
[وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من صرب
المثاق ، والتقريب والرمز] ص ١١٩ .

وإن ملائكة العرش الثمانية فى آية الحاقة :

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ،

[لهاها قوى كهربية متطابقة هائلة ، الأتمسك قوانين الجاذبية

بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟] ص ١٢٩ .

وإن العلامة الأخيرة من علامات الساعة هى بأجوج
ومأجوج - يروج المفسر المصرى فيها بالغيب ، فربط

حواراً بين المارشال مونجورى وماونسى تونج ، عن تكاثر الصين
 وسحتال غزوها للعالم ، برؤيا يوحنا اللاهوتى . ثم يعقب تخميناً :

[ما هذه الأمة التى عدتها كرمل البحر ، ولقى سوف
 تحشد لتعذب العلم عنلما تم السنة الألف ؟ ولعله يقصد
 الألف الثانية ميلادية ، وباقى عليها الآن أقل من ثلاثين
 سنة !] س ١٤٥ -

فيا من قرأتم آية ياجوج وماجوج ، أو سمعتموها تنلى
 عليكم من سورة الكهف ، هل فهمتم من قريب أو بعيد
 احتمال كونها من أشرط الساعة ، مع صريح نصها أنها من خبر
 قوم غابرين ، فى قصة ذى القرنين ؟

وبأعلماء الرياضيات والطبيعيات ، هل يعنى رقم ثمانية
 صدكم ، قوى كهرمغناطيسية ؟

وهل تعلمون طلاب التشريع فى عصرنا ، أن قلب المؤمن
 كرمى الله ، وحقل الإنسان عرش خالقه ، وجسمه اللوح
 المحفوظ الذى يكسب على الجينات الوراثية فى خلية الحنين ،
 قدر المولود وحياته ، ليقتنوا بأن القرآن صالح لهذا الزمان ؟

أما نحن أصانلة العربية والإسلام ، فلا نجور على أن
 نلقتى الطلاب أبناء هذا الزمان ، يمثل ذلك التفسير العصرى

لعياب يفرض علينا إيماننا بالدين والعلم ألا نخوض فيها بغير علم، حتى لا يكون مثلنا ، كَمَثَلِ الْعُنْكُبُوتِ اَّتَحَدَّتْ نَيْتًا،
وَأَنْ أَوْفَنَ الْيُوتِ لَبِثْتُ الْعُنْكُبُوتِ .

وهيات أن نُسخر بعقولم فتدعى العصرية والعلمية فيهم ،
بكلمات ساذجة فلوكها عن كروية الأرض الدوارة ،
والكهرمغنطيسية ومسيرة التطور والجينات الوراثية في اللوح
المحموط ، وقانون الضغط الأزموزي ، وجيلولوجيا القمر في العرجون
القديم ، ولحقيقة البيولوجية العلمية في التأنيث اللغوي للعنكبوت !

• • •

بين الدراسة القرآنية
والتفسير المعاصر

- في النتج
- في الموضوع

لن يفرغ الناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس
في التفسير العصري للقرآن ، وبينت لهم ما فيه من ضلال
الاعتباس بجهالة ، وعثرات القتل النازل عن سياق النصوص
المقتضية وفردتها ودلالاتها .

في سنة ١٩٦٩ - نشرت «دار المعارف بالقاهرة» كتاباً لي
عنوانه :

(مقال في الإنسان : دراسة قرآنية)

بعدها ، في سنة ١٩٧٠ ، ظهر التفسير العصري مقالات
في صباح الخير ، ثم فصلاً في كتاب مطبوع .
ولفتني ، من أول وهلة ، ما بين الكاتبين من صلة ،
على التساوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط
المنهجية الصارمة ، وبين تفسير عصري يعم في كل واد ،
ويصرب في مناهة الغيبيات ، لا يضبطه أي قيد .

وأستأذن القراء في أن أعرض هنا ما في هذا التفسير على
دراستي القرآنية ، استكمالاً لوثائق هذه القضية الخطيرة ،
وإضاعة لموقفهم مما ينشر فيهم باسم القرآن وفهمه العصري .

• • •

وأبدأ بالمتج :

في تفسير الألفاظ ، أرى الدكتور يردد في أول كتابه

(ص ١٢) وفي آخره (٢١٢) كلاماً عما قرأناه من تعدُّ تفسير كلمة قرآنية بأخرى من الألفاظ المقول بترادفها ، أو العلول بها على وجه التلويل والتقدير ، عن موضعها الذي جاءت به في البيان المعجز .

وهذا الأصل للتهجي الذي نلتزمه في الدراسات القرآنية ونلزم به طلابنا في الجامعة ، يتردد في التفسير العصري فلا ندري له موضعاً فيه ، وقد جرى المؤلف على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيراً لألفاظها في نص الآية ، عبأى بها على هذا النحو مثلاً^(١) :

إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ (أنصاراً) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ص ١٢٦ .

وَمَنْ يَعْشْ (ومن ينصرف) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تُقْبَضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (مصاحب وملازم) ص ١٢٦ .

وَإِذَا أَقْرَبْتُمْ وَأَخْلَسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِكُمْ أَوْصَىٰ (عهدي) قَالُوا أَأَقْرَبُونَا ص ٦٠ .

(١) هذه الآيات ، وكل ما في التفسير العصري من آيات ، جاءت فيه بمبر ضبط ، دون توصل لمعلومات نرقم ا

«فَلَوْلَا (فلو أنهم) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْلَفْنَاهُمْ بَغَةً فَلَإِذَا هُمْ مُنْمِلُونَ
(يالنسون تماماً) ٧٩ ص .

«فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ (على سليمان) مَا ذَكَّرْنَاهُمْ
عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا نَادَى الْأَرْضِ تَاكُلُ مِنِّي أَسْمَانِي (عصاه) فَلَمَّا
خَرَّ نَبَيْتَتِ الْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ (عذاب التسخير لسليمان) ٤ ص ١٣٢

«قَالُوا يَاذَا الْفَرْتَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا (أجرا) عَلَى أَنْ نَجْعَلَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَأَيْ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ
(كل الحديد الكبيرة) حَتَّى إِذَا سَلَوِي بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ
(جانبى الجبل) قَالَ أَنْفِخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ

أَتَوْنِي أَمْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (نحاس مذاب) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ
يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝ ص ١٤٢ .

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (أى انشقت) »

« وَإِنَّا إِلِيحَارُّ مُجِرَّتْ (أى فجرت ناراً) » ص ١٤٧

« وَلَا يَجْرِي مِنْكُمْ شَيْءٌ قَوْمٌ عَلَىٰ آلَا تَعْلَمُونَ (لأن دفعكم
الكرهية إلى نحامل) اعْلَمُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » ص ١٧٦ .

« وَبَسَّحَ كُرْسِيَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَئُودُهُ (ولا
يشق عليه حفظهما) » ص ١٩٢ .

وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه
أحد فيما أعلم . ولا عهد لنا بمثله في أى كتاب إسلامي . وقد
كان علماءنا يتشددون في إنكار مثله في رواية الحديث ، حفظاً
لنفسه من أن يختلط بكلام للراوى ، ولم يتخطر لهم على بال ، أن
ذلك مما يمكن أن يقع في آيات القرآن .

وفى التأويل :

أرى المذكور يردد بين حين وآخر ، كلمات ، من شأنها من ضوابط منهجنا المتمم بصريح النص وحكم السياق ، فتدوغرية على أسلوبه المصرى وطريقة تناوله .

من ذلك مثلا ، أنه يردد ما لفتنا إليه من خطر التفسير الباطنى والمطول عن ظاهر النص ، وما أوجبنا من ضرورة الالتزام بدلالات الألفاظ القرآنية كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ في المصحف ، والاحتكام إلى توجيه صريح السياق .

ويقول مثلا فى إنكار تأويل البهائية : [... وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ، وكيف يمكن أن تودى أمثال هذه التفسير إلى اقتلاع الدين من أسامه . وهذا انتهى بنا إلى موقف فى التفسير لابد من التزامه ، هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر] - ص ١٢٢ .

على حين يوزل بنا فى التأويل ، إلى أبعد مما ذهبت إليه البهائية والباطنية . فقد أنكر على صاحب البهائية مثلا أن يؤول عن موسى بشعبه فى الآية : هـ هـى عَصَاى أَنُوكَا عَصِيَّتْهَا وَأَمْسَسَ بِهَا عَلَى عَصَاى هـ .

فهو يكون تأويل النعم بالشعب ، أبعد شططاً من تأويله
للمعبرين [بالنفس والجسد] في آية طه ، خطاباً لموسى

« فَاصْطَفِ نَاصِيَةً لِّإِنِّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى » ؟
ويفسر بشرية المصطفى ، في آية الفرقان :

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي
الْأَسْوَاقِ » .

بما نسبته إلى الصوفية ، من تأويل هذا المظهر لشريعة
المصطفى [بأنه السر الإلهي ستر به سر النبوة في ثوب بشري
عادي لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق] ، حتى
لا يبدد السر بالإظهار والاشهار ! [ص ١٠٢ .

ويفسر آية الزمر ، خطاباً للمصطفى عليه الصلاة والسلام :
« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » .

بما نعه : [أفن إلى قصك فانت غير موجود ! أنت
طل . شألك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت
الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يعد لك وجود . واختصت
معك كل الظلال التي كانت تتناول بأعناقها إلى جوارك]
ص ١٨٤ .

ويقول في تفسير « كلمة التقوى » من آية التمتع
[وهي كلمة التنبيه بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن

كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها
أن تفك وتعاد إلى عليها . . .] ص ١٨٦ .

ويعبر [شقرة] قوائم السور بقوله :

[وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .
ويُفسر آية العنكبوت :

« وَالَّذِينَ جَاءَهُمْ قَيْنَا لِنَهْلِيَنَّهُمْ مَّبَلِّغُنَا »
يقول فيما يقول :

[ولهذا السبب نفسه ، لعدم القهر والجبر أنحنى الله نفسه
في الإنجيل ، وأنحنى نفسه في القرآن (١٩) لأنه لم يرد أن يلجما
بالتجلى القاطع القاصل فيقهرنا على الإيمان قهراً] ص ٢٧ .

• • •

على أن ذلك كله ، ومثله معه ، لا يقاس بما جاءنا به
لتصير العصري من عجيب التأويل لتبنيات عن حياة لنا
سابقة قبل النزول في الأرحام ، وعن شهود الجن والشياطين
والملائكة ، وعن غيب الساعة والحياة الآخرة . . .

وهي تأويلات تعرضها على ما يقابلها من دراسات القرآنية ،
ونحنكم فيها إلى الكتاب الحكم ، لئلا يبالغ التزام المفسر العصري
بما رده من قاعدتنا المنهجية في [الوقوف عند حرفية العبارة
ومدلول الكلمات للظاهر] .

في الموضوع :

موضوع كتابي (مقال في الإنسان) كما تلخصته على
علاوه ، في طبعة المعارف سنة ١٩٦٩ :

« دراسة قرآنية لقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى ،
نستقرى آيات البيان القرآني في الحياة والموت ، وتستجلى فيه
ملامح الإنسان بكل كبريائه وعظمته وقوته ، وكل غروره
وهواه وبصغفه . وتتجبر ما يحمله في رحلته العابرة بالمدنيا من
مشولية أمانته الصعبة ، وما يواجه من مشكلات الوجود وهموم
المصير »

وكنت بحيث لا أشق على القراء بعرض مقابلة موضوعية
بين عطاء هذه الدراسة القرآنية المنهجية ، وما يقابلها في التفسير
العصري ، اكفاء بأن أشير إلى مواضع المقابلة .
غير أن ما يأتي في كتابي مباحث مستقلة متميزة ، يتناثر
في أصول الكتاب العصري :

« ما كتبه عن الحرية والرق مثلاً ، جاء به الدكتور في
فصل (لا كهوت) .

والذي قلتمته في « حرية العقيدة » جاء به موزعاً على
ثلاثة فصول : (لا كهوت ، رب واحد ، لا إله إلا الله) .

وعما قلته في مبحث « جطل في البيت » جاء بعضه في فصل
(البيت) وبعضه في (إيجاز القرآن) ..

وإد لا سبيل لسواي مع هذا التشتت ، إلى أن يهتدى
إلى مواضع الأخذ والمقايسة ، أجتنب مضطره إلى أن أستخلصها
بنفسي ، بقدر ما يحتمله ضيق المجال المخلود .

(١)

الغيب

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ،
وَلَوْ كُنْتُ أَظْهَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَبِيرِ وَمَا
مُسْنَى السُّوءِ ، إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .
(قرآن كريم)

[وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين
وعلم الغيب شهيداً] (الضمير المصري ١٢٢)

* * *

حظر القرآن الخوض في الغيبات بغير علم .
وحين أباح الأئمة من علماء السلف الاجتهاد في التفسير
لأهل الفقه والدراية ، أخرجوا الغيبات من مجال الإباحة ،
ونصوا على منع الاجتهاد في تأويلها ، وإنما حينئذ نتوقف
فيها على ما جاءنا به الذين اتفقنا بهم .

وكذلك لا يجوز العلم أن نخوض في الغيبات بغير علم ،
فكل ما يقال فيها لا يعلو أن يكون حاكماً لقضايا أو رجماً
بالظن .

ومن (مقال في الإنسان) :

«تجاني العلم من هذه الميبيات ، التزام بمنهج التجريبي الدقيق الذي يرفض أن يقول في الغيبيات بنى أو إثبات ، والعم الحديث يلزمك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية أسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص تاركاً أسرار المينافيزيقا حتى يمتد إلى فتحخرج من نطاق الغيبيات ... ويسقط عنها الخرج اللين والخرج العلمى ، كلاهما » ص ١٦٠ .

وتقرأ مثل هذا الكلام ، في التفسير العصرى ، عما في القرآن من [طلاس من الغيب المحجب يحار فيها عقائنا ولا يملك لها نقياً ولا تأييداً] ص ١٢٠ .

[والاجتهاد مباح في أمور الدنيا ، لكن القطع في أمر عبي أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقلورنا] ص ١٤٥ .

[والروح غيب ، وما بعد الموت غيب ، ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذى أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب الذى يرى ما لا نرى ويعلم ما لا تعلم] ص ١٦٩ .

ونراه مع ذلك التكرار لحظر الخوض في الغيبيات ،

والاقتصار فيها على ما أتانا به القرآن ، يقتحم الخيب ويأتي بعجائب وغرائب من يدع التأويلات ، توغل بنا من حياه كانت لنا قبل النزول في الأرحام ، وتؤكد أن في هذه البشرية مَنْ كُشف له علم العيب ، وتحرر أن المقصر العصري [يكاد يضع يده على الحقيقة] من غيب الساعة والآخرة .

• • •

وأبدأ بقصة الخلق ، وخلاصة ما أعطته دراساتي القرآنية .

« تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبي البشرية .

« ولا مجال هنا للجلل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فأدم في النص القرآني هو الإنسان الأول الذي بدأ منه طور البشرية والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « تَخَلَّقَكُمْ أَطْوَاراً » . وبيّنت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً .

« هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » .

« كما لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين : فحسب الإنسان ما ، لكي يؤمن بالقدرة الخالقة ، أن يلتفت إلى الأرض - تدبر

جلث مرنانا في ترابها ، فتحتل عناصرها ذاتية في التراب
الذي يتغلنى الأحياء من نباته ومعادنه ويأق عناصره ...
ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليدرك
أما حلقنا من تراب ، وإلى التراب نعود ، على المشهد المنظور
والواقع الحسى للمدرك :

” الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْنًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَسَاتِ
شَيْءٍ ، كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي
النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
تَارَةً أُخْرَى ” (١) .

سورة طه : ٣٢ - ٣٥

وفي التفسير العصري :

[لما قال الله : خلقناكم ثم صورناكم ... ثم اكتملت
الصورة بتخليق آدم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... فعنى
هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والنسوية
استغرقت ملايين السنين بزماننا ، وأياماً بزمان الله الأبدى .
وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا ، ومعناها أنه كانت هناك قيل آدم

صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها : « هَلْ أُنْتَى
عَنِ الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ اللَّحْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً »
إشارة إلى مرحلة بائدة من اللحر لم يكن الإنسان يداوى فيها
شيئاً يذكر [ص ٥٢ -

لكن هذه الخلاصة ، التي لا تبعد كثيراً عما قلتُ آنفاً ،
تنوه في حشد من التأويلات لغيب مجهول ، كنا نعيش فيه
قبل الآدمية ، ونفصل الخلق عن خروج آدم من طين
المستنقعات ، ردة وانتكاساً وعقاباً على خطيئة !

وقصة الخلق عنده ، تبدأ بصفحات عن نظرية « داروين »
في أصل الأنواع نحتها الدكتور باكشاف [الخطأ الذي
وقع فيه داروين في نظريته عن النشوء والارتقاء ،
مجرد أنه ، لا يرى يد الصانع الخالق المهندس وهي تهديس
وتخلق] ص ١٧ .

ثم قدم لنا ، تأويله للعلمي لقصة الخلق التي غابت عن
داروين ، وكل العلماء ، كما وغابت عن عصر النبوة ، قال
[إن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم
مبطلنا على بعض الغيب . على ما حدث في الملكوت
في الملأ الأعلى قبل الخلق الأرضي لآدم ، فيروي لنا مرحلة
سابقة لهذه الخلق : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * .

[إن ما حدث من ابتلاء آدم من الماء والطين على مراحل
طورية في الأرض، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة سوف
نعمهم تفاصيلها] ص ٥٥ .

[لقد منع الله آدم الحرية، وخيره بين السخول في طاعته
فيكون مثله شأن النجوم في أفلاكها تجري على نواويس الله
الموصوعة ، وبين أن يكون حرّاً مستولاً فيحمل الأمانة ...
ولكن الإنسان اختار أن يكون حرّاً مستولاً وأن يخرج على
الأمر الإلهي بإغراه إبليس ، فأكمل من الشجرة^(١) .

[وكان العقاب هو الطرد والإهباط من تلك الجنة إلى
الأرض . ولتزلزل إلى « أسفل سافلين » ، وهي هاوية التيه المادي،
إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض ،
إلى نقطة بدء أول ، من الصفر .

[وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في ابتلاء
متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم
البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأُميا .
صعدا إلى الإنسان والقرود والقرشيات ... إلخ إلخ ،

(١) قابله على بحث (أمانة الإنسان) في كتاب مقال في الإنسان ، ترى
ألا سلة هذه الأمانة بالشجرة الحرية .

في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية. . .

[إنها رحلة أشبه بالخروج من الرحم ، من رحم الأرض ذاتها وهي الرحلة التي يعطينا الجنين تلخيصاً سريعاً لما في تسعة أشهر . « فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » .

[وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته للتأنيمة وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول] ص ٩٠ .

هذا هو الصحيح العصري لنظرية دارون، يردفنا باسم القرآن إلى الأميا والرخويات والقرشيات ... تفسيراً لأسفل سافلين ، ثم يقرر بعدها في تأويل آية الالتحاق : « يَا أَبَوَاهُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلِيقٌ بِهِ » .

[هناك إذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم ليكون إلى جواره في الملكوت ، وآدم الأرضي الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين ، حيث ألقى به مبعداً مطروحاً إن كلا منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين] ص ٩٠ .

[وهي آيات كوشف ، تشير إلى مرحلة روحية عشناها في الملكوت قبل النزول في الأرحام ، وإلى أنه كان لنا ثمة وجود

قل الميلاد (١) شأننا في ذلك شأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم أنزل إلى أسفل سافلين [٢] - ص ١٠ .

[ويقول الله في القرآن لمحمد : « قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، وهي كلمات نعى سبق الرجود المحمدي على جميع الأنبياء . وهي إشارات تدل على وجود روحى سابق . . . كنا فيه في عالم ملكوتى قبل أن نزل إلى الأرحام] ص ٦١ .

• • •

وأعترف مع الدكتور ، بأن هذا كله [بما لم يقله لنا أى علم] فهو هو مما قاله القرآن ؟

وهل من [الالتزام بحرفية العبارة وملل الكلمات الطاهرة] أن آدم خرج من الجنة ، مجرد جرثومة في الطين ، تطورت عبر خمسة آلاف مليون سنة ؟

[نه على أى حال ، ليس بأصعب من التأويل البيولوجي للشجرة المحرمة . كما جاءته في قصة الخلق من الفهم المعصرى للقرآن :

[فلما علنا إلى الشجرة لسأل ما هي ؟ أمي رمز أم حقيقة ؟ وجدنا ألمانا اختلافاً كبيراً . . . وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلاهما في قصة البيولوجيا حينما أنطت للكائنات

الحية بطريقة التلاصع الجنسي لتكاثر فكبت على نفسها طارئ الموت .

[كان التلاصع الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها لحية هيوت من الخلود إلى العدم ، وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو رواج اثنين من الخالدين في الجنة . وفي مثل هذه الزواج لم تكن توجد وظيفة للمكاح والتلاصع الجنسي . فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للتسل لاستمرار الحياة . . .

[ويقال إن شريعة الطهارة وقطع النفقة الزائدة من العضو التناسلي . كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخضاء ، تقززاً بما فعل . ثم أصبحت تعليماً دينياً من يومها . ولا مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفضل فتؤدي إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقى بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآفة صادقة حرفياً ومجازياً] ص ١٢

لغريب حقاً ، أن الدكتور ختم هذه التأويلات اقطعية لقصة الخلق وبيولوجيا الشجرة بقوله :

[ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ، ويجب أن نقول إن اشجرة ما زالت لغزاً ، وإن قصة الخلق ما زالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد] ص ١٢ .

روى تاويل الجن والشیاطین والملائكة :

لاموضع المقارنة بين عطاء دراستي القرآنية ، وبين حديد التأويل المعصرى . فهما مختلفان تماماً . على أن المقارنة تحدى على بيان جوهر الفرق بين عقليتنا ومنطقنا نحن تلاميذ مدرسة النبوة ، وبين عقلية طيب صحافى ومنطقه المعصرى فى فهم القرآن وتأويله .
 فى (مقال فى الإنسان) ، لم أزد على قولى فى الجن :
 « نلاحظ الإنسان يأتى دائماً مع الجن على وجه التقابل .
 يطرد ذلك ولا يتخلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر الإنسان : وعددها ثمانى عشرة آية .

ولملاحظ الإنسانية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن ، فى دلالتها أصلاً على الخفاء الذى هو قرين التوحش .

« وهله الإنسانية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى حفية مجهولة لا تنتمى إلينا ولا نحميا حياتنا . وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا إلا فى تهويل للظلمة وتصورات الرهيم . وإنما ينسج اللفظ - بدلالته الأصلية على الخفاء ، ومقابلته للإنس - لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مسرركة وراء حدود علتنا الذى نعيش فيه ، ولا ينحصر للسفن المعروفة

الى نوجه حياتنا وتحكمها .

وهنا المدلول الرحب ، تتبنى شبة الحرافة التي ندفع كثيراً ما الى رفض الاعتقاد في وجود الجن ، إذا قلنا أن الكشوف العلمية الحديثة لا تنفي احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش في عوالم خفية كالكوكب ، لانزال نجهلها وإن لم نكف عن السعي الى اكتشاف خفاياها وبجهايلها « ص ٤٠ » .

* * *

أما الملائكة ، فنصلري ما قلته في مبحث . خليفة في الأرض ، من (مقال في الإنسان) :
وفي مستهل العهد الملائكي نزلت سورة البقرة ، وفيها آية خلافة آدم في لأرض :

” وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَرِّئُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ”

(والآية ، ومعها آيات خلق آدم ، صريحة الللالة على أنه مسبق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التي لا ندرى عنها ولا يأتنا لنا العلم في أن نخوض فيها ، وهي من

الديناميكية التي لا تزال خارجة عن اختصاص العلم الحديث
 ١ وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها بأكثر مما تلاءم

عينا كتاب ديننا . ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على
 آدم . وقد عاشت في عالمها التي لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة
 لسواميس غير التي تخضع لها الأدمية ، تسيرها الإرادة العليا
 على وجه التسخير ، فتأمرها في خضوع وإذعان ، دون
 أن تبلى بحرية إرادة واختيار ، ودون أن تهيأ طبيعتها لعلم أو حاق
 كسي ، بل دون أن تدرك ضرورة ما لوجود طور جديد من
 المخلوقات ليس له مثل خضوعها ، وهي المذعنة للتسخير المطلق ،
 والكون يسير قبل هذا الأدنى ، والملائكة فيه وسل ربهم .

” لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ “

١ والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبرية تسلیم وطاعة تسخير ، ولا هي محض
 شر وشهوة تمرد وإصرار على النفي والفضلال ، وإنما هي تحقيق
 للذات عن وعي وتمييز وإرادة .

١ هي تجربة الابتلاء يتعرض فيها آدم للتغاية فيعوى ،
 ثم تصهره التجربة وتحاسبه النفس اللوامة فينتقم ويتوب .
 ويمضي آدم ليمارس خلافته في الأرض ، فلا تكون حياته كلها ،
 من بدء خلقه إلى آخر وجوده اللذيعي ، إلا معركة متصلة

بين الخير والشر ، يحتمل فيها تبعه عمله ومسئولية اختياره وأمانة
إنسانيته

« وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية للبشر عن
اختيار

كل خير من الإنسان ، كمن لا تحظى به الملائكة المسخرة .
وأى شر تسعه التوبة الصادقة وتردعه النفس القوامه .

أو هذه هي الآدمية السوية . وحين يشذ عنها بعض أفرادها
فيقترب الشر شهوة وهواية ، دون رادع من ضمير ، فمن هذ
الشدود يخرج بمثل هذا للشرير عن طبيعة الآدمية ويمسكه
شيطانا مريفاً من حزب إبليس اللعين . من هنا لم يكن فيها
توفعت الملائكة لآدم من إضاد في الأرض وسفك السماء .
ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها : دون الملائكة التي تسبح
حمد الله وتقدس له . فالابتلاء يقتضي أن يكون أمام آدم
شروور تنويه ، لكي تمتحن طاقته وتصهر معنائه . وأمانة الإنسان
تعي أن يواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر .
ليكون حيره له وشره عليه ، وهو ما خلق ليعيش في ملكوت
الملائكة وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ، والخير
المحض لا يبرر الخلافة ، إذا كان جبرياً يغير إرادة
واختيار » ص ٢٦ .

وقد تجد منه في التأويل العصري ملقطات مبعثرة بين (مسير
 أو مسير) و (قصة الخلق) عن تسخير الملائكة وتمرد إبليس
 وأمانة الإنسان وتبعات التكليف ومهالك الغرور ، وابتلاء
 الإنسانية بالخير والشر ...

ولكنك تجد معه الجديد المبتدع من مثل هذه التأويلات
 الغريبة التي لم تصل إليها عقليتنا :
 في تفسير آية الزخرف :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا
 فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

وبما ثبت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين »
 يأخذ منها للمفسر العصري ، مما غاب عن عصر النبوة ،
 شاهداً على أن الأرض كروية تدور ، ثم يستطرد قائلاً .

[وهذا المثال يدل على مدى الخفاء في القرآن . وأن
 همه يحتاج إلى كل الجهد ... وأن مثل هذه الآيات ما كان
 يمكن أن تنصر في عصرها وزمانها ، وهذه إشارة بأد حكاية
 القرين من الجن ، هي أيضاً أمر غيبي لن يفهم الآن ،
 ولكن سوف يتضح في ميقاته وزمانه ، ولكن علينا أن نؤمن
 إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح تذكر ما كان لها
 في عالم الملكوت .

[والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة قلباً ، هو دليل
 كاشف على نوع من التذكر ۝ امض لعالم القدس والملكوت ،
 وأنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو . ثم يروى
 لنا الله في القرآن أن الإنسان لا يترك لقرين الشر من الجن ،
 وإنما له قرين آخر من الملائكة يلامه ويأمره بالخير . وبظهر
 هذا القرين الملائكي ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه :
 وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۖ

♦ ♦ ♦

فلينظر القارئ سياق الآية التي امتشهد بها المذكور
 المعسر ، للقرين الملائكي :

وَلَقَدْ كُنتَ فِي ضَلَالَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
 فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۖ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۖ
 أَتَقْبَلُ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ مُّتَعَبٍ
 مَّرْغِبٍ ۖ أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْعَدَسِ
 الشَّدِيدِ ۖ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي
 ضَلَالٍ بُعِيدٍ ۖ

هل في هذا السياق - شهادة من قرين ملائكي لصاحبه
الذي لازمه ولمسه الخير ؟

• • •

وبينما الدكتور اجتهد في تأويل الغيب : [ثم هناك
ملائكة للعرش ، ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ هُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »
[كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هي
ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة ؟ أم هي
ثمانية فرائين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أم هو
رور ؟ وما هو الكرسي ؟ إنه يوصف في آية الكرسي بأنه
وسع السلاوات والأرض - فما بال العرش بأمره ؟ وكيف تحمله
مخلوقات ؟ أم هي مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق ولعلها
قوى كهو مغناطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس
ولنجوم في فضاء الكون ؟] ص ١٢٨ .

على أن الدكتور ما لبث أن كُشف له الخجاب
عن ذلك الغيب كله - فنشر في فتاويه بالحجة ردًّا على يريد
القراء - أن العرش الإلهي هو قلب المؤمن ، وأن الكرسي هو
العقل - أما الروح المحفوظ فهو جسد الإنسان يكتب به
الله أو ملائكته أقدارنا على البليينات الوراثية !
ويقدم معه تأويلاً لقوله تعالى :

وَيَسْأَلُونَكَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنْ اللَّهَ مِثْلُنَا يَكْتُوبُ وَيَسْأَلُ
وَيَرْاجِعُ النَّفْسَ . . . وهو غير صحيح ، والتفسير الأصح أن
الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بلوحة تعمل إلى اللامعول
إلى نحو القلم المقلود [ص ١٣٧] .

* * *

ونهم من قوله في إعجاز القرآن :

[وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماضى لم يودخ ، ويتأ
مستقل لم يأت ولم تقم عليه الشاهد ، وملكك على عوم لم
تعلم بعد ، وعن غيب شجب معلوم لم يكشف إلا قللة
من المخصوصين من أهل التصوف] ص ١٠٦ .

نفهم منها أن الدكتور عبد عما قرره من استئثار الله تعالى
بعلم الغيب فلا مجال للاجتهاد فيه . ولعله كذلك وضع نفسه مع
هذه القلة من الصفوة التي كشف لها ما كشف من عيب معلوم
محجب ، إذ يقول في الرد على تأويلات صاحب البهائية :

[وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة
ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يلزم بها البشرية ، وفي هذه
البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً ؟
هل الأعلى هو الذى يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد

تقوم فتزعم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟

[إنما اختلاقات النبي الذي أراد أن يدخل متلى الأنبياء بلا مؤهلات ، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده في السفارة الإلهية التي ادعاهها] ص ١٢٢ .

* * *

ولا أسأله هنا :

هل تكون رؤية الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب ، أوراق اعتماد في السفارة الإلهية ، لمن رآها من هذه الشربة شهيداً ؟

بل أطيل التأمل في قوله ، تأويلا لآيات النجم :
 « إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » والتكوير « لَهُ
 لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » :
 [وحينا يصف الله أحد مخلوقاته بأنه شديد القوى وبأنه ذو القوة والمكانة ، فلا بد أنه هائل عظيم في قوته وفي إمكاناته .

[ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض

في أية صورة ، ويعمل الوحي إلى أي نبي في أي عصر وبأية لغة [؟ ! ص ١٣٠ -

ثم لا أملك إلا أن تأمل الآية المحكمة :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَهُ . . .

• • •

وماذا عن طيب الآخرة ؟

الساعة التي استأثر الله بعلمها وقال لرسوله المصطفى :
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا •
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا • إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخَشَاهَا • كَانَتْهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا غَشِيَةً أَوْ غُصَّاهَا الطَّلُوع : ١٢ - ١٦
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِنْدَهَا
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ •

الأعراف : ١٨٧

وَسَأَلْتُكَ النَّاسَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
اللَّهِ وَمَا يُنْذِرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً . الأحزاب ١٠ - ١٢

هذه الساعة التي لا يعلمها إلا الله ، والتي أكد القرآن أنها تأتي
بغتة ، أدخلها المفسر المصري في مجال اجتهاده ، فجاءنا من
غيب أسأئها ، بفصل كامل من كتابه .

وعلى عادته يبدأ بتقرير الأصل فيقول : [الساعة دروة
الغيب ، وعلمها محجوب عن الكل . اختص الله به نفسه دون
العالمين] .

ثم لا يلبث أن يمضي على غلواته ، فيضع رؤيا يوحنا
اللاهوتي أمامه ، ثم يتجاوز أقصى الملقى في الاجتهاد ،
فيحدد موعداً محتملاً لقيام الساعة ، بيتنا وبينته ثلاثون عاماً !
قال : [ثم تأتي العلامة الأخيرة وهي يأجوج ومأجوج
وهي قصة غامضة كلها رموز .

[البعض (؟) يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث
ابن نوح ، وأنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما في درسها ،
عاشوا في آجال وأقطاب من الجهالة ، والشعوب المتقدمة من
حولهم تبنى أسواراً من العلم والتصنيع .

[ودنو القرنين وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز
للعلم والصناعة التي كانت دائماً تجهزم وراء حاجز الجهل

والتخلف وتهم حولهم سداً . حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا
عن أنفسهم هذا التخلف وأخلوا بأسباب الصناعة وصنعوا
الحديد والصلب والقنبلة الميلوجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين
وهدموا السد (ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذي يعرفهم
عن العالم) ساحوا في الأرض وزلوا من كل حطب يسلمون
وكانت الحرب التي تضع ختام الحياة [ص ١٤٤] .

[ومع هذا ، فإننا لو فتحنا الإصحاح العشرين من
سفر ايرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن أبجوج وأبجوج ؛
فإننا نراه يقول نفس المعاني وبشير نفس الإشارات : « مني
تمت الألف سنة يحل الشيطان من مسجته ويخرج لبطل الأمم
الذين في أربع زوايا الأرض . . . أبجوج وأبجوج ليجمعهم
للحرب وعددهم مثل رمل البحر »]

هذا يسته للدكتور إلى أن « الألف سنة » - وأقرب خيال
عنده أنه بعد ميلاد المسيح عليه السلام - قد مضى منذ
سعدائة سنة وسبعين ، فلا يجد مانعاً من الاجتهاد في تأويله

[ما هذه الأمة التي عددها كرمل البحر ، والتي سوف
تختشد لتضطرب العالم عندما تم البنية الألف ؟ ولعله يقصد
الألف الثانية ميلادية ، وبقا عليها الآن أهل من ثلاثين سنة .

[هي أمور تثير الخيال ، وهي نبوءات تتلأعى التواحدة
لتؤيد الأخرى ، ولا غم لك إلا الصمت ، فمثل هذه التاويلات

لا يحق لنا أن نؤلفها والوحي يقول لنا عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

مرة أخرى يخونه سياق الآية ، في التشابه من آيات
القرآن ، لا في القرآن كله .

مرة أخرى يردد القاعدة الأصولية في حظر الخوض في
الغيبات ، ومنع الاجتهاد في تأويلها .

بعد كل ما أوغل فيه من تأويل لغيب الساعة ، ورؤية
الجن والشياطين وللملائكة شهوداً .

ثم يستطرد فيضيف علامة لقيام الساعة ، بعد الأهمية
التي حندها يأجوج ومأجوج - فينقل إلينا من سفر الرؤيا
تفسيراً لآيات الانقطار والتكوير ، صورة مشابهة للقيامة ،
في رؤيا يوحنا اللاهوتي - ص ١٢٧

وكانت نهاية المطاف عنده ، فيما كشف له من غيب الآخرة :
[حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس .
تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا . . .]
[ولكن هذه المثلثي تفصيح في النظرة المتعجلة والقراءة
السطحية والوقوف عند الحروف ، وعند جملجة الألفاظ]

[أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جملجة وصلصلة

حيثما نصف الجحيم إنما هي تلير حقيق بعذاب تعذيبه لأنفسنا
 بأنفسنا عدلاً وصدقاً على رتبة استحقاقها كل منا بعمله . وأكاد
 أضع يدي على الحقيقة لأريب فيها [ص ٥٤ .

* * *

هكذا كاد يضع يده على الحقيقة في غيب الآخرة .
 وذلك غير مستبعد ممن يرشدك إلى الوسيلة التي تكشف
 لك ما كشف له من علم الغيب ، فيقول :

[واعد الإنجيل : اطلبوا تجملوا . دقوا على الباب يفتح لكم ،
 على أن يكون دق الباب يجماع القلب والهمة واقطعاع البال
 وخلوص النية . وليس مجرد شقشة لسان بدعاء تقليدي .
 وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبائه وأوليائه
 فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهداء وترى الغيب حضوراً ،
 وتسمع ما لا أذن سمعت [ص ١١٩ .

* * *

(٢)

حرية الإنسان

وأدع الغيبيات، من قصة الخلق ، ومن الجن والملائكة ،
وعلم الساعة والآخرة ، لأتابع المقارنة الموضوعية بين دراستي
القرآنية والتأويل العصري، فأشير بوجه خاص إلى مباحث حرية
الإنسان ، التي هي قضية الإنسان الكبرى في هذا العصر
وكل عصر .

* * *

والمبحث الأول من مباحث هذه القضية في كتابي ، خاص
بالحرية والرق ، وخلاصة ما هندي استقراء كل آيات القرآن
فيه ، هو : « أن كتاب الإسلام لم يكف في مواجعة
مأساة الرق بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لعب
الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد، من ناحية ، إلى إغلاق المتخذ الجديد للاسترقاق ،
وإلى تصفية الرق القائم عصر المبعث من ناحية أخرى .
د فاما إغلاقه المتخذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب
والقتان كانوا المورد الأول للرق . وتشهد آية محمد :

”فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى
 إِذَا أَنتَحَسْتُمُوهُمْ فَضَلُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِتْنَاءٌ حَتَّى
 تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا“

تشهد أن كتاب الإسلام لا يميز استرقاق أسرى الحرب ،
 وإنما يختار المسلمين المتصرين بين أمرين لا ثالث لهما :
 المن على الأسرى بإطلاقهم ، أو قبول الفدية فيهم . وإذا لم
 يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً ، فقد سد المنفذ الأكبر
 للرق وأعلى الإنسانية من مورد له جليد متصل .

« وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد الملكي
 لمكر فحضر الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني
 الحر ، وبين تعالى سبيل اقتحامها ، فكان ”فك رقبة“ أول
 ما بدأ به ، دون تهديد هذا الفك بكفارة من ذنب :

” فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكٌ
 رَقَبَةٌ . . . “

« ثم في العهد الملكي الذي اتجهت فيه العناية للقرآن إلى
 التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص
 الإسلام على تصفية الرق القائم . وقد بدأ العهد الملكي بسورة
 البقرة وفيها آية البير :

”لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوكُمْ وَبُحُورُكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَفِي الرِّقَابِ“ . (الحرة : ١٠)

ثم حدد القرآن مصارف الصلقات ، وهي من أكبر مصادر
إيراد بيت المال ، فجعلها ثمانية من بينها تحرير الرقاب .

وبرض الإسلام على المؤمن تحرير رقية ، كفارة لعدد من
الذنوب منصوص عليها في القرآن :

الحلف في الإيمان : المائدة ٨٩

القتل الخطأ : النساء ٩٢

الظهار : المائدة ٢٥

كما شرع المكاتب مغلًا آخر لتصفية الرق (قنر ٢٢)
وإذا كان الاسترقاق قد بقى في المجتمع الإسلامى على
عهد الرسول والصحابة ، فلت أشك بما أعمى من سيرة
الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان
في طريقه إلى التصفية لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ابتداء
من عصر الأموي من ظروف وأوضاع ضيقت على الإنسانية

ما أتاحه لها كتاب الإسلام لتخليصها من محنة الرق .
(مقال في الإنسان ، ٦٧ : ٧٣)

• • •

المبحث كله جملة وتفصيلا منقول إلى التفسير المعصرى ،
وإن عدل به عن موضعه من قضية الحرية إلى فصل
(لا كهنت) !

وقد حاول أن يستغنى فيما نقل من كتابى عن
بعض ألفاظه ، وأن يعيد صياغة بعض الجمل بأسلوبه المعصرى ،
فحاده الالتفات إلى دلالة السياق وأقصد المعنى . كمثل قوله

[ولحل الأمل هو الذى خلت به الآيات بألا يكون
هناك مزيد من الاسترقاق . وكان مصدر الرقيق هم أسرى
الحروب وكانت وصية (؟) القرآن تسريع الأسرى أو طلب
الفدية فيهم : « فإمّا مَنّاً بَعْدُ وإمّا فِدَاءً » بلا استرقاق

[أما الموحود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدرج إذ جعل
القرآن فك الرقبة كفارة للخوب صغيرها وكبيرها (١؟) وجعلها
وسيلة تطهير نفس واقتحام لها « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ »

[بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق ، وعمل على نصفية
الموحود منه . وإذا كان ما حدث في الدولة الأموية هو

العكس وليس النغب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذي
نفسح ، وقصور الخلفاء التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية
على الطريقة الفارسية] - ص ١٧٥ .

وأترك للقراء أن يردوا هذا الكلام إلى مصلوه . وألقهم إلى
مواضع التعرّ في حلف أو غير :

جعل تشريع المنّ والنفاء وصية ، وهو في الآية أمر

صريح !

ودكر فك « الرقة » معرقة بأن ، وليس في القرآن
كلمة إلا « رقة » ، والتذكير فيها يفيد العموم .

ونروط فافق بأن [القرآن جعل فك الرقة كفارة للذنوب
صعبها وكبيرها] هكنا على الإطلاق ، وذلك ما لم يقله
القرآن ، ولا قال به أى مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها
فك رقة . والذى في كتابي : « كفارة لعدد من الذنوب متصوص
عليها في كتاب الإسلام » .

ونقل الفقرة الأخيرة من البحث ، فاستغنى عن الإشارة
فيها إلى عهد المصطفى وخطافته الراشدين : ولافتى عنها .
ونوسع في إشارتي إلى العصر الأموي ، فذكر [قصور أخلفاء
الأمويين التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة
الفارسية] والذي يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الإسلام ،
أو قصور الأمويين كانت في شغل شاغل بفتوح إفريقية

وعرو الروم ، وبالقناتل في جبهات : الشيعة والزيرية والحوارح ،
 وأن عرو الملحمة الفارسية لم يبدأ إلا مع الدولة العباسية التي قامت
 بسيف الحراسانيين فمكنت لهم من مراكز السلطة فيها
 وانموذ : وفشت الأبواب لغزو المندية الفارسية الهدي طل
 الأمويون يصعدونه تعصياً للبرية ، فكان اضطهادهم للموالى ،
 من الفرس بخاصة ، من أقوى الأسباب التي قضت على الدولة
 الأموية .

• • •

وفي حرية العقيدة

فلست الاستقراء الكامل لما في القرآن من آيات تحظر
 الإكراه في الدين وتقتصر مهمة الرسول على البلاغ ثم نظرت
 في موقف الإسلام من الأديان السماوية قبله « فقرأ لا يكتفى
 بالاعتراف لمعتقداتها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك أن
 يقرروا بسوة كل للوصل ، ديناً وعقيدة ، لا لجرد التسامح أو
 المسئلة ، كما يلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصلق لما بين يديه
 من رسالات الله .

« ومع اعتراف الإسلام بتلك الأديان المتلحة التي سبقته ،
 وتقريره أنه مصلق لها ، وتأكيده لجدا حرية التدين .
 « مع هذا كله فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها

الأسمى ، استشرف بها إلى عاية تبدو جميلة ، وأصبح لها مجد الصروح إلى ما وراء هذا الأمل القريب في احترام حرية التدبير .

و تلك الغاية العبدية التي رنا كتاب الإسلام إليها ، هي الوحدة الجامعة تلتقي فيها الإنسانية المختلفة على الإيمان بالله ، لا تعرف بين أحد من وصله .

ذلك حين قرر وحدة الأديان بوحدة مصدرها وغايتها ، فالذي تلقاه خاتم الرسل هو في حوهره ما تلقاه الرسل من قبله .

” مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ”

فصلت : ٤٣

” وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ” .

المنكوت ٤٦

ثم بين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة في مثل آية آل عمران :

” قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَيَسْأَلُكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُكُمْ نَعَضًا آرْتَابًا مِنَ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ قَوْلُوا تَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

« ومن تحرير الإسلام ، ختام الأديان ، لعقيدة الإنسان
إبطاله سلطة الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالمهر
والتحكم ، بما أخفت من صفة الوساطة بين العبد المتدين
وحالته ، وما اتحدت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك العمران .
أو نصور قرار التكفير والحرام . وذلك ما أبطله الإسلام فلم
يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وحالته :

”وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الْمُدْعِيَ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ “ .

وكما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة
أو النار ، أو يحدد لمخلوق مثله مكانه هناك . فهو سبحانه الذي
يأمر أين يضع رحمته ، والرسول المصطفى لم يكن له شيء
من هذه الحقوق الإلهية التي يتحفظها فيها ناس تسلطوا على خلق
الله بكهنوتية أبطلها الإسلام :

”إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَلِينَ ۚ . الفصل ١٧ . والتحليل : ١٢٥

• ولعل علماء بعض المذاهب المحدثه للأديان ، إنما نشأ أصلاً بسب ما انتحله رجال الدين فيهم من ساطعة كهنوتية سوّعت باسم الدين البغي والاستغلال وحادثت الرجعية والفساد والطغيان واستترفت أموال المتلبّين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو غدية من غضب الله .

• ومن عجب أن حركة الإصلاح الديني التي قام بها مازن لوثر تأثرت بمبادئ الإسلام في إسقاط سلطة الكهنوتية وتحريم صكوك الغفران ، ثم يكون بيننا من يمارس هذا الحق المرعوم في أمة الإسلام ، فيتحل ما لم يعطه الله أحداً من رسله .

”أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ“ . المائدة : ١٠

”إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَنْهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيَخْفَىٰ مَا تُؤْنِ ذَٰلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ“ . الفصل ١٨

”قُلْ يَا هَيَايَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَخْفَىٰ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ“ . الزمر : ٥٣

فَأَتَى لِأَحَدٍ أَنْ يَتَحَلَّ فِي هَذَا الْحَقِّ : وَكِتَابُ الْإِسْلَامِ
قَدْ رَفَعَ عَنِ الْإِنْسَانِ إِصْرَ تِلْكَ الْكَهَنَوِيَّةِ ، تَقْرِيراً لِحُرِّيَةِ عَقِيدَتِهِ
وَصَمِيرِهِ وَعَقْلِهِ : وَمَا تَلَقَّى الْمُصْطَلَى مِنْ كَلِمَاتِ رَبِّهِ :

”قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ“ .

”وَكُلُوا شَاءَ اللَّهِ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ“ .

”فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ
عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ“ .

”قَدْ ذَكَرْنا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطِرٍ“
و كِتَابُ الْإِسْلَامِ يَخْضِي فِي رَفْضِ الْكَهَنَوِيَّةِ ، إِلَى الْمَدَى
الَّذِي لَا يَبْقَى فِيهِ اسْتِغْفَارُ الرُّسُولِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ قَوْمِهِ

”اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ“ (النِّسَاءُ : ٨٠) .

وَحَقُّ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ مُطْلَقٌ بِإِذْنِهِ تَعَالَى وَرِصَالُهُ ،
بِصَرِيحِ الْآيَاتِ الْحُكْمِيَّةِ :

فَإِذَا لَمْ يَأْخُذْ سَبْحَتُهُ ، فَهِيَاتُ لَأَحَدٍ مِنْ شَفِيعٍ ، وَهِيَاتُ

أن تجدى شعاعة من دونه

فأبى الإنسانية اليوم من حرية العقيدة التي أقرها القرآن
ومرضها منذ أربعة عشر قرناً ؟

« ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْبِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(مفلح في الإنسان ٧٥ ٨٨)

• • •

من أسف أن عطاء هذه الدراسة الملهجية ، قد تردد
في التأويل المعصرى ، فجاء شطرها الخاص بموقف الإسلام
من الأدب قبله ، في فصل (دب واحد ودين واحد)

وجاء الشطر الخاص بإبطال الإسلام للكهنوتية ، مادة
فصل (لا كهنوت) .

وهذا في الدراسة متلازمان متكاملان ، يتم بهما معاً فهم
(حرية العقيدة) .

فضلاً عما لحق بها من بتر النصوص وبعثرة الشواهد ،
ومأضاف إليها التأويل المعصرى من فتاوى شرعية ، في مثل
حد السرقة ، وتعدد الزوجات ، وغض البصر ، وتكفير
الكاذب بقلبك رقة !

• • •

أما يبحث : حرية الإرادة ،

فيشق على أقسى المشقة ، أن ألح أي وجه للمقارنة بين
دراستي للملهجية لأعقد المشكلات التي واجهت مفكرى

الإسلام ، وبين ما يلتقنا في (غير أومير) بالتأويل المصري من اضطراب للتناول وخفة الأسلوب وطيش الأحكام . وما ظنك بمن يتصلى لعقدة العقد في الفكر الإنساني ، بمثل قواه : [ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة . فإنه يكتفى بالوضوح والرمز والإشارة والمحة ... فهي تلمح ولا تصرح حتى لا تلتئ الناس في بلبلة .

[ولهذا السبب - لعلم القهر والجبر - أخفى الله نفسه في الإنجيل وأخفى نفسه في القرآن ، لأنه لم يرد أن يلجئنا بالتعجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قسراً .

وضمن آياته البراهين ، ولكنه لم يجعلها أبداً (١) براهين ملزمة تأخذ بالحقائق وتظهر العقل] .

يصنع الله

لا وجه لمقارنة مثل هذا الكلام ، ببطء دراسة استوعبت أقوال الفرق الإسلامية في مشكلة الجبر والاختيار ، وعرضتها على القرآن في استقراء كامل لآيات الإرادة فيه ، هدى إلى الفرق الجوهرى بين مفهوم إرادتنا الكسبية الحرة ، ومفهوم الإرادة الإلهية التى هى حكم نافذ وقضاء مبرم ، يحكم علينا بما أردنا لأنفسنا ، تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيلاً لحرية إرادتنا وإلزاماً عادلاً بمسئوليتها . وترسيخاً لثبات السنن الإلهية التى لاتعقل إرادته تعالى بتقضها !

(مقال فى الإنسان ٩٩ : ١١٧)

(٣)

الوجود . . . والعلم

بدأ هذا المبحث في دواشى بمخل من نضال الإنسانية القديم لمقاومة فكرة العلم .

« وجاء عصر الأديان المعروفة لنا والبشرية تجاهد لاستنقاذ إرادة الحياة من دمار التسليم بالعلم ، فبشرتها الأديان بحياة أخرى بعد الموت ، يرثيها مصير الإنسان فيها بما قدمت يداها في الحياة الدنيا » .

والبشرى مصحوبة بتنذير ، صلك سمع عبّاد الدنيا من عهد ما بعد الطوفان (المزمور ٣٣ - ٤٧) .

« ومضت الحياة لا تتوقف ، واستراح الإنسان المتدين إلى رفض فكرة العلم التي تجعل وجوده في الدنيا عبثاً عقيمًا ، كما تجعل رحلته الدنيوية وتكاليفها عبثاً باهظاً لا يُحتمل » .

« وفي كتاب الإسلام ، نستطيع أن نلمس الكلمة الأخيرة للدين ، في مصير هذا الإنسان الذي خاض معركة الطويلة المضنية من أجل الحياة ، وأحياء مع ذلك أن يتحدّى قانون الموت القاهر التافذ ، يسرى على أفضل الوصل وأنه المباشرة وأنبغ الأطباء وأشجع الأبطال وأعنى الجبابرة ، كما يسرى

على أصال حشرة هينة هائمة في الكون الواسع العريض ،
 « والإقناع بحياة أخرى بعد الموت أمر بالغ الصعوبة ، إذ
 يشق على الإنسان أن يتصور رجعة الحياة بعد أن تعنى الأجسام
 وادنين سفوفاً إلى المقابر ، لم يعد منهم عائد يجلثنا عما هالك
 والعلم عاجز حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة
 خارج نطاق تناوله . وكل ما يرجف به المرجفون من قول
 بالعدم المطلق بعد الموت ، لا يطمئنون أن يكون في حساب العلم نفسه
 رجماً بالظن .

” وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا
 يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
 يَظُنُّونَ “ .
 الخاتمة ١٢

« وإذا كانت الأديان تكل المؤمن إلى إيمانه بما جاءت
 به الرسل من أنباء الغيب الذي لا يطمه إلا الله ، فإن كتاب
 الإسلام الذي ختمت به الرسالات الدينية إيماناً بأن البشرية
 بلغت رشدتها ، يقدر طبقة الإنسان إلى يوهنان يقنعه
 بالحياة الأخرى . ويتوقع جدله في هذه المسألة العيبة
 . وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئاً جَدَلًا »

(مقال في الإنسان ١٢١ : ١٢٤)

من هذا المخل ، كان متطلي إلى :

جدل في البعث :

استقرأت فيه ما تلا علينا القرآن مما أثير من جدل حول البعث . « ثم لم يدع شبهات الذين أنكروه تمر ، مكتفياً بأن يكفل الإنسان إلى إيمانه ، بل حرص على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذي تطعن إليه الإنسانية دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما نهبأ لها من إلهام القطرة وهدي الصيرة ووسائل التأمل والنظر كيلا يكون الاطمئنان وقفاً على زمان بعينه أو مرتبطاً بظروف وأحوال خاصة لا تحتاج لكل إنسان .

« وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام ، ما نراه في الواقع لشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي . توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العادي فضلاً عن أن تكون من المستحيل العقلي :

” وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اخْضَرَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ “

فصلت ٣٩

” يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ “

وليس هنا فحسب ما يقلعه الدين في كتاب الإسلام ليطمس قلب لإنسان إلى إمكان البعث ، بل إنه يضع كذلك أمام بصره وبصيرته ، وحسه ووجدانه ، آية للقدرة الإلهية المعجزة خلق الإنسان أول مرة ، فلن يعيها أن تعينه مرة أخرى ، وذلك أهون .

« وتوشك الآيات القرآنية في خلق الإنسان ، أن تكون في الغالب الأعم موجهة ، لا إلى علوم البيولوجيا ، بل إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ما يأتي في سياق الرد على الكافرين في هزئهم بتدبير الآخرة :

” بَلْ صَبِّحُوا أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ • أَيْنَمَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، فَبِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ • “

” أَفَعِيسَى بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ • “
ق : ٢ - ١٥

” وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ • أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ • “

” وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ • “

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا • قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَلِيدًا • أَوْ خَلْقًا مِمَّا
يَكْسُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا • قُلْ لِّدَيَّ
فَطَرٌ كُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ •

الإِسْرَاءُ ١٩

• ومنها ما يأتي دفعا لحيرة الإنسان فيها يشغله من أمر تلك
الحياة الآخرة التي أكسبتها الأديان ، وما يجهد من التكبر
في تصور إمكان تحققها :

”وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا •
أَوْ لَا بَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا •

الرَّحْمَ ١٦

”أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ • بَلَى
قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ •

”أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُشْرَكَ مُدَى • أَسْمَ يَكُ
نُطْمَةٍ مِنْ مَتَى يُمْنَى • ثُمَّ كَانَ عِلَاقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى •
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى • أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى •

الْقِيَامَةِ

”فَبَيَّنْتَ لِلإِنْسَانِ مِنْ خَلْقِهِ • خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِي •
 بَخْرُجٍ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ • إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ“
 العادون

”أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
 حَصِيمٌ مُبِينٌ • وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ
 يُخْبِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُخْبِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ
 مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ“
 من : ٧٧

• بهذا المنطق ، يقدم البيان القرآني إلى الإنسان ، الآيات
 الشاهدة على أن الذي خلقه أول مرة ، قادر على أن يعيد خلقه
 مرة أخرى . فإذا شق على الإنسان أن يتصور حياة بعد
 موت ، فليأمل في الكون حوله ، ير شواهد من الواقع الحسي ،
 في الأرض نحيبا بعد موت ، وفي الكائنات الحية تخرج مما يبدو
 لنا هامداً ميتاً .

ولكن هذه الآيات إذا اقتضت الإنسانية المتعينة التي تؤمن
 بحالها فقد بقي هناك مجال لا يثير الملحون من جدل في أن الله
 هو الذي خلق الإنسان أول مرة ؛ ولا يسكت القرآن عن
 هذا ، بل يقدم برهانه الذي يحلو الرية ويضحم المنكر .

والسؤال الذى عرضه كتاب الإسلام بصيغة التحدى لكل مكر أو مرتاب هو :

” أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ “ ٤

الظهور ٣٥

ثم برزت آية الحج المنفية ، فضربت للناس المثل الصادع ، وسافت الرهان للمحتم :

” يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْمِعُوا لَهُ . إِنَّ الْيَلِيسَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَعَصُوا لَهُ . وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الثَّيِّبُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، صَعَفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ “

١ ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم القرآن هذا المثل . أربعة عشر قرناً : ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق ما ارتد ، وتنازع بضالته الباهر العجيب فى كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، وغزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر ^(١) .

وما يزال المثل القرآنى يتحدى كل جيروت الغزاة وعشغرية العنساء . وما يزال على اللتين غوهم الغرور بما حقق إسان

(١) هذه التسمية القرآنية ، نشرت أول عام ١٩٦٩ ، قبل هبوط

٥ أبولو ١٦ على سطح القمر .

العصر الحديث من منجزات العلم، أن ينسخوا ذلك المثل بأن
يخضعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقلوا شيئاً سلكتهم إياه ،
الحشرة الضئيلة التي تفلها ذرة من هواء مشبع بمبيد للحشرات ،
ونستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته ، بلصة هبة
خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت » .

(مقال في الإنسان ١٢٥ : ١٣١)

هذه العرض في سياقه المتهجى الذي يطمئن به مكانه
في قضية البحث من مبحث الوجود والعلم ، تتأثر مشتتاً مهلهلاً
في فصلين من التأويل العصري : (البعث ، وإعجاز القرآن)
مع هرجة من كلمات عصرية خلافة ، وحشون من بلع التأويلات
المفحمة على القرآن وعلى العلم معاً !

فلأقف عند المقرة الأخيرة التي نقلها هنا من كتابي ،
لأعرض عليها ما يقابلها من التأويل العصري :

[فلأننا لجأ للقرآن إلى الجدل فهو يجادل في بساطة وبقيم
الحجة في أحكام . يقول عن الكافر الذي لا يصدق أنه
يبعث . « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَتَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ
بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

« أَقَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ حَقِّهِ »
 حديد : ٤ .

[وليبرهن على وجود الخالق لا بلجاً إلى صفحات من
 لحدائق الفلسفة ، وإنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار في
 إشكال : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ؟ » فإذا
 أراد أن يفهم ويلجم أتى بمثل آخر .

« وَيَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاذْمَعُوا لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ
 بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ
 يَسْلُبْهُمْ النِّجَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
 وَالْمَطْلُوبُ » .

[وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة
 من تطور العلم والتكنولوجيا (!) فمن يستطيع أن يخلق ذبابة
 على هواها ونقاها . وإذا سلطت الذبابة حياتك بمرض تنقله
 إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنها لو سلطت
 درة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا
 لا يستطيعون استرداد هذه الدرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً
 إلى سكر بفعل الحماض الهاضمة . فما أضعف الطالب والمطلوب .

ما أضعف عبقرى الكيمياء وما أهون النجاية وما أنه ذرة
من النشا . بهذه البساطة المعجزة الملفتة ، يتعرض القرآن لأعقد
لتقصايا فيوصلها لأبسط الأذهان [ص ٢٠١ .

وهنا أيضاً خاتمة الحرص فيما حاول أن يغير من عارضى .
متورط في عشرات من التلخيص :

نقن هذا الكلام من مكانه في (جلد في البحث) من
مبحث الوجود والعدم ، إلى فصل . . . (إعيان القرآن)
وجعل آية يس : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَتَسْمِي حُلُقُهُ »
قولاً عن الكافر ، والآية في سياق الحديث عن الإنسان
بعمامة .

واستبدل ببارقى في المثل القرآنى وما يزال بعد أربعة عشر
قرناً منذ ضرب للناس ، يتحدى كل جبروت الفزاة وعقوبة
العدم : « عابره : [وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد
ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا]

ولا أعلم أن العلم والتكنولوجيا ، تطورا منذ ألف عام ،
أى في القرن التاسع الميلادى ، من صميم العصور الوسطى !
وما قلته في منطق البيان القرآنى لدفع الشك في البحث ؛
« يشته النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواجى ، دون أن يحتاج
فيه الإنسان إلى ظروف خاصة أو وسيلة خارجية إن أتبعته

لعدد من الناس في بيته معينة أو عصر خاص ؛ فليست بحيث
تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية ،
أعاد صياغته وأضاف إليه ما لم أقله من صفة الإعجاز .
[هذه البساطة المعجزة الملتزمة بتعرض القرآن لأعقد القضايا
ميوصلها لأبسط الأذهان] .

وجاز عنده أن توصف البساطة بالإعجاز ، وأن يكون
الإعجاز سبيل توصيل أعقد القضايا إلى أبسط الأذهان !

• • •

وعلى " أن أكتفي الآن بما قلعت من مقابلة كاشفة لعترات
التدليس بجهالة ، وأخطاء النقل العاقل عن المتزى والميلاق .

فلأختم هذا العرض بنكتة لطيفة :

في دراسات القرآنية ، يبهزني البيان المعجز وتأسرني ضوابط
المنهج ، فقلما ألتقي بإيراد شعر .

غير أن « مرثية أبي الملاء » الدالية ، خطرت على بالي وأنا
أدرس قضية الإنسان فبحثت بأبيات منها في بحث « العَرَض
والجوهر » من مقال في الإنسان ، على نفرة ما أفضل .

ولم أعجب حين جاءت الأبيات نفسها في التفسير المعصرى
الذى لأعجز فيه لشعر ، منقولة إلى أول فصل (لا إله إلا الله) !
مع تشر في نقلها لخل " بنسقتها الشعرى ، ومع خطأ نحوى
أفسد المعنى !

اللهم فاشهد !

وَأَقْلًا يَتَلَبَّسُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَبِيرًا ، صدق الله العظيم
(سورة النساء)

أخذ بعض الناس بكلمات خلافة من التأويل العصري
 نرصد وجدانهم النقي . ويسأل سائلون منهم : ماذا علينا
 لو قبلنا منها ما يرضى عقيدتنا ، ويجاوزنا عما يخالفه من بدع
 التأويل ومفسوس الإسرائيليات ؟

• • •

من وحي أن أستخلص لم مما فلتت من شرح القصيدة .
 بعض ما أفكر حاجتهم إليه . ليتبرروا ما يقدم إليه باسم القرآن .
 ومطلق العلم ، وروح العصر .

ليس لي أن أجادل فيها جاء في التفسير العصري . من
 [أن النبي الأمي لم يكن يعرف لاهو ولا قومه ولا عصره ، معي
 كلمة بيولوجيا وجيلوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشرح
 وأنثروبولوجيا] ص ٤٨ .

ولا أنخص كذلك ، فما غاب عن عصر المبعث ومدرسة
 النبوة . من أحدث التأويل لما جاء في [ذلك القرآن المذهل الذي
 أتى به رجل أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، بدوى راعي غنم في
 بيئة بدوية ، من أجلاف البدو في صحراء جرداء مقطعة الصلة
 بالحصارة والمعلوم] ص ٢١٤ .

بل ما ينبغي لي أن أجهل حق الدكتور المسر
 في هذا التأويل العصري لآيات كشفت له من قصة الخلق
 عما لم تكشف للنبي الأمي وعصره ، في بيئة بدوية لا علم لها

بالبيولوجيا والأمنيا والرخويات والقشريات التي تطور فيها آدم
الثاني بعد طرده من الملكوت مجرد جرثومة في الطين، احتاجت
إلى آلاف الملايين من السنين، ليستصحب فيها هذا الآدم
الثاني على قلبيه، فتبدأ حياتنا الثانية بعد تلك الأولى التي
كانت لنا في الملكوت قبل القتل في الأرحام !

كما لا ينبغي لي أن أجادل في أن النبي الأُمِّي ، لم يبين
لأنه من آية يس « وَالْقَصْرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ
الْقَدِيمِ » ما في تأويلها العصري من إشارة إلى جيولوجيا القصر
الذي هبطت عليه أبولو، وأن يربط - عليه الصلاة والسلام -
بين « سبع سموات » وبين ما في التأويل العصري من كلام
عما [كشف العلم من أن الفضاء سبعة ألوان هي ألوان الطيف،
وسبع درجات من الأطوال الموجية من الأحمر إلى البنفسجي ...
وبالمثل السلم للموسيقى سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جواً
للأولى وهكذا] ص ٦٣ .

فضلا عن أن يكون النبي الأُمِّي قد فهم أن حملة العرش
في اليوم الآخر، بآية الحاقة، يمكن أن يكونوا [قري كهو منطسية]
أو أن آية آل عمران : « وَهُوَ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعاً وَكَرْهاً » .

تعلق بما عرف للقصر العصري من [قوانين : الضغط الأمروري ،

والتوتر السطحي . وتعاكس العمود المائي ، والتوازن الكهربائي
والأيوني في الفعائل ، والتفاضل الكيميائي ، ورفض الفراغ ،
ورد الفعل] .

ذلك كله وأمثاله مع ، بعيد عن النبي وعصره .
وإنه لبعيد كذلك ، أقصى البعد ، عن تلاميذ المدرسة القرآنية ،
فلتركة للطبيين والرياضيين ذليروا ما إذا كان شيء من هذا
مما يصح في علمهم ويميز عند علماء العصر الحديث !

• • •

لكن ماذا عن أسرار البيان القرآني ؟

أبكون المصطفى والعرب المتصحاء الأصلاء في عصره .
لم يدركوا منه ما يدركه مفسر عصري ، يستوى عنده الأعشى
والمصرف . ويعد من إعجاز القرآن أنه أثبت لفظ العنكبوت .
وأنه ذكر « الحير » في قصة يوسف ، بدلاً من « الحمار »
في التوراة ، لأن الحير معناها الإبل ؟

هل يكون لخل هذا العصر العصري ، أن يهتدى إلى
ما عاب عن النبي القرشي والعرب المتصحاء ، من لغة كتاب
عربي مبين ، وأسرار بيانه ، وإن الطفل البدوي من عصر
المبعث ، يدرك أن العرب أنكروا العنكبوت من قديم وثبتهم
بجاهلية ، وأن الحير في أصل استعمالها لفظة الحميم ، والحير
الحمار الوحشي ؟

الذي لا يجادل فيه ، هو أن المصطفى والعرب في عصره ، لم يفهموا من البيان القرآني ما جاء في التأويل العصري عن : الموسيقي الباطنية للقرآن (ص ٩) وتذبذبه حروفه ، والسيمفونية السباعية لسورة الفاتحة (ص ٩٢) وفورم للعمار القرآني (ص ١٦) ولم يتصوروا أن المثل القرآني للحياة الدنيا : [تدبر بأن كل هذا العلم ديكور من ورق اللعب ، ومدينة مزينة مصيرها أن تهدم وتعاد إلى علبها] ص ١٨٦ ولا خطر ببالهم أننا [كلنا مجرد صور تبرد وتختفي على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدل وتزول عند انقطاع التيار ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء] ص ١٨٢ .

ذلك كله ، ومثله معه ، من عصري الصور والتشبيهات التي لم يعطها البيان القرآني للنبي وعصره وبيته .

لكن الذي لا يصح في القول ، هو أن يفهم مصر عصري ما لم يفهم النبي القرشي والعرب الفصحاء ، من لغة هذا القرآن وبيانه وأحكامه ، ومن ثم يتصدى للفتيا في أحكام الشرع ، بغير ما بينه المصطفى وعرفه الصحابة وأئمة الفقه الإسلامي !

كالذي نقلت من تفسيره للنعيل بالنفس والجسد ، والتقريب الثلاثي . ومثل فتاويه في الحلال والحرام ، يعطل بها جنود الله ، ويبلغ قانون المسيية ، وهو من السنن الكونية الثابتة !

— ويؤكد القرآن في عشرات الآيات ، أن الله سبحانه هو

الذى يحاسب عباده « فيخسر من يشاء ويعتد من يشاء »
 ويفتح المفسر العصري في الحساب والطاب يوم الآخرة .
 [حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس . تعالى ذو الحلال
 أن يحاسب أمثالتنا وأن يعتد أمثالتنا] ص ٨١ .

ويقول تعالى لئن آدم ، تحذيراً من فتنة الشيطان .
 « إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم »
 ويقول المفسر العصري :

[وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين
 شهداء] ص ١٢٢ .

— ويقول تعالى لئن لم المصطفى :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم
 ولعلهم يتفكرون »

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه
 وعلى رحمة لقوم يؤمنون » .

وفي التأويل العصري : [أنه — سبحانه — سوف يشرحه
 وبينه في مستقبل الأعصر والدهود] ص ٤٩ .

[ثم إن الوحى يلقى عليه فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة
 والألغاز مما لم يقل لنا للنبي إنه يعلم له تفسيراً وإنما
 هي بعض النقطيات التى نحددنا بها القرآن ووعظنا بأن يأتى
 تأويلها في آخر الأيام] ص ١٩٦ .

ويقول تعالى :

« كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون »

ويؤكد التأويل العصري ، عشر مرات أن القرآن يتحدث بالشهرة

والرمز ، والألغاز الفلسفة (ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ،

١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٢)

ونتلو من الآيات المحكمات خطاباً للمصطفى .

وقل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله ،

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني

أسوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

ونقرأ في التأويل العصري أن القرآن يخبر [عن غيب محب

مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المختصين من أهل التصوف]

ويترع الدكتور المفسر فيقدم لك وصفة الحظوة والوصول ،

[وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أعباده وأوليائه ،

يفتح بصبرك ترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع

ما لا أدن سمعت] ص ١٢٩ .

* * *

أقول الحق : لقد تحيرت مع هذا التأويل العصري ، فحيث

يقول مرات : إن القرآن ليس كتاب علم (ص ٢٦) ولا كتاب

فلسفة ولا سياسة : (١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٢٨ ، ١٦٨)

يؤكد في مواضع أخرى :

[إن التوحيد نشأت منه كل أعداد المعارف والعلوم] ص ٢١٩
 [وهو يملك على علوم لم تعلم بعد . . . ويقدم إليك
 حكمة الأزل ودستور الحياة وفلسفة في الأخلاق والحكم واللاهوت
 وما وراء الطبيعة . وفي المعاملات والحرب والسلام و...] ص ٢٠٦ .
 [وفوائح السور علوم علياسوف فصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .
 [وتسابق العلوم فلا تكاد تلتحق بأذيال القرآن] ص ٢١٢
 وحيث يقول إن الاجتهاد في أمور الدنيا مباح ، لكنه
 في أمر عبي [أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن : فصلا عن
 أنه ليس في مقدورنا] ص ١٤٥ .

بؤكد غير مرة : أن في هذه البشرية من علم العيب
 شهوداً ، ويلقانا بتأويلات موفلة بنا في مجاهل من حياة كانت
 لنا نيل النزول في الأرحام ، إلى غيب الساعة واليوم الآخر .

* * *

ألايت الدكتور أنفي ما كشف له من أسرار غيبية
 وفروح ربانية : وملك ملك الصوفية الذين قال فيهم :

[ويُنقِ الواحد منهم كراماته كما ينقي عودته ، لأنها السر
 الذي بينه وبين ربه ، وعلامة المحبة والخصوصية والقرب .
 وما بين المحب والمحبوب لا يصح إفشائه وإبتذاله . وقانونهم
 الذي يتكلم لا يعرف ، والذي يعرف لا يتكلم . . . وما أندر
 هؤلاء الربانيين في هذا الزمان] ص ١١٠

وبعد، فقد تصديت لهذه القضية وشرفت فيها ما نشرت ، وأنا أتوقع سلفاً ما يواجهني من سخط الذين يرضيهم أن يهموا كتاب الإسلام كما بينه لهم مفسر عصري ، يجادلهم بما لم تعرف مدرسه النبوة من غيب الساعة والحياة الآخرة ، وما لا عهد خا به من نظرية التطور وحيولوجيا القمر وديناميكا العصب ، والإلكترون والكهر ومخطيئة ، وفن الديكور والسيمفوني والمعمار ، وبينهم في الحلال والحرام بما يحطل حدود الله ويهين قدوس السبيبة .

لكني توقعت مع ذلك أن تحس كلماتي ضمائر من يؤمنون بكرامة العلم وحرمة القرآن ، وأشهد لقد تلقيت من رسائل التأييد ، مالا أذكر أنني تلقيت مثله على طول عهدي . لكثافة في قضايا الفكر الإسلامي .

ولولا أنني آخذ بمبدأ « القضايا لا الأشخاص » لسرني حقاً أن أذكر أسماء الذين تفضلوا فكتبوا إليّ ، وأن أنقل هنا نص الخطاب الذي تلقته « إدارة النشر بمؤسسة الأهرام » من در الشر والتوزيع في الخرطوم : ترجو فيه طبع مقالتي : في التعبير العصري ، في كتاب تمجز مت لقرائها في السودان ثلاثة آلاف نسخة . . .

وقد كان اعتزلي يحسن رأيهم فيّ ، وتقديرى لموقفهم معي ، مما جعلني أعجل بنشر هذا العرض للوجز القضية ،

قبل استكمالها بما يشغلني الآن من (دراسة للقاديانية والتفسير
العصري) تكشف عن مسار هذا التيار الجناح الذي يستبجح
تأويل كلمات الله بغير علم ولا هدى .

ولعل أخطر ما تعرض له الحرية - هو أن نجبر على حق
متخصص في أن يرفض فتوى غير المتخصصين وتقليبهم ،
وأن يقول : لا ، فيما يستبيحون لأنفسهم من استهانة لكرامة
عقولنا . كما أن أخطر ما يزيغ العصرية ، أن تطارد وصمة الحمود
من يرفض فوضى الإباحة لأقدس الحرمات ، وأن تتخذ
العصرية قناعاً لشهود الجن والشياطين وللملائكة عياناً ، وعلم
الغيب شهوداً !

بروح عصرنا ، تدرك أمي أن أي علم يلتمس من مراجعته
الموثقة ، ويؤخذ من علمائه المتخصصين .

ويليماننا بالعلم ، ندرك أن عصرنا يفكر علمياً بعقلية الغد
وطموح التطور ويرنو إلى عصر ما بعد الوصول إلى القمر ،
أما الدين فتعهمه نقياً بمنطق العقيدة التي لا تتغير مبادئها بتغير
الزمان والمكان ، لأن الدين ثابت في جوهره وأصله ، وقيمه
ومثله .

وأعلم أن ابنتي المتخصصة في الرياضيات ، تشتغل في
دراساتها الجامعية العليا بتعديل « نظرية أينشتاين في النسبية »
حين لا أطمح إلى أن أخرج من طول عكوفى على الدراسة

القرآنية : بأكثر من محاولة فهم القرآن تقيًا أصيلاً كما بينه
خاتم النبيين المبعوث بهذا القرآن ليبينه للناس .

وكبرت كلمة يقولها مفسر عصرى . فهم من القرآن
أن [جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ،
ويحمل الوحي إلى أى نبي في أى عصر وبأية لغة] :

فهلى بلغت ؟

اللهم فاشهد ، والسلام على من اتبع الهدى

كيمياء السجادة
الشيخ محمد بن عبد الله

فهم
المكتبات

فهرست

صفحة

مدخل	٥
هذا القرآن	١٣
القرآن الكريم ، بين الفهم والتفسير	٤٣
لكيلا تفضل المقائيس	٦٥
دفاعاً عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا	٨١
بيت المنكوبت	٨٩
بين الدراسة القرآنية والتفسير المعاصر :	
في الموجع	١٠٥
وفي الموضوع	١١٤
(١) الغيب	١١٧
(٢) حرية الإنسان	١٤١
(٣) الوجود والعلم	١٥٣
(٤) جدل في البحث	١٥٥
اللهم فاشهد	١٦٥

رقم الإصدار	١٩٩٩/٢١٣٧
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5735-4

١/٩٨/١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

